إبراهيم عبد الجليل الإمام

لغز حجر غدامس

رواية



الهيئة العامة للثقافة
GENERAL AUTHORITY FOR CULTURE

لغز حجر غدامس

إبراهيم عبد الجليل الإمام

لغز حجر غدامس

عيسى يوسف اللموشي

الهيئة العامة للثقافة
GENERAL AUTHORITY FOR CULTURE

لغز حجر غدامس

إبراهيم عبد الجليل الإمام

الطبعة الأولى: **2020** م

رقم الإيداع المحلي: **2020/396**

رقم الإيداع الدولي: **978-9959-921-74-1**

دار الكتب الوطنية بنغازي - ليبيا

هاتف: **7165022.21821+** - بريد مصور **21821-4843580+**

ص.ب: **75454** - طرابلس **Email: almosgb@yahoo.com**



وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

سورة البقرة

فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ

سورة الأعراف

١

تعارف ...

1

كنتُ أعلم أن عالم الإنترنت سيدخل حياتي ذات يوم كما دخل حيوات الآخرين في الطرف الآخر من الدنيا .. كما أني كنتُ على يقين أنه سيصبح شيئاً أساسياً وأصيلاً لا غنىً عنه في حياتنا كلنا ذات يوم قريب أسوة بباقي العالم .. حاولتُ فقط مقاومة تأثيره أو لنقل التأخير قدر الإمكان في الولوج الى أعماق عوالمه المغرقة مبكراً .

كنتُ أخشى أن افقد المزيد من حريتي .. أعلم أن هذا العالم يشبه عالماً قد سبق ودخلته في مراهقتي وندمتُ بعدها على دخوله .. ما تحررتُ من براثنه إلا بصعوبة .. احتاج ذلك مني لكفاحٍ مريرٍ ومحاولاتٍ متواصلة .. تركتُ رفاقاً كثيرين خلفي يغرقون فيه يعانون تبعاته ... باءت كل محاولاتهم للهروب منه بفشل وإحباط ما أدى بهم للانغماس أكثر والغرق في ذلك العالم .. إنه عالم التدخين .. بكل ما توهمت فيه من متع .. لا أعتقد أنه تنقصهم الرغبة في الافتكاك من تلك البراثن لكن الإرادة هي التي كانت تنقصهم ..

يوماً ما سيتمكنون وينجحون فقط عليهم أن لا يتوقفوا ولا يكفّوا عن المحاولة ..

2

كان صديقي وليد يدير بمهارة ومتعة مقهى للإنترنت بجوار شقتي بل إن أردت الدقة فمقهاه يقع أسفل العمارة المجاورة لشقتي تحديداً .. كنتُ أزوره أحياناً هناك - بعد إلحاحٍ متواصلٍ منه - في غير أوقات الذروة .. فترة القيلولة تكاد تكون مقهاه خالية من الزبائن .. تكون زيارتي عادة في اليوم الذي أفشل فيه في استثمار القيلولة في النوم .

كنتُ أرفض في كل مرة أزوره فيها عروضه السخية والمجانية بالدخول لعالم الإنترنت المبهر حسب وصفه حينها .. لم يفلح في اقناعي رغم إغراءاته المتكررة .. كان يستغرب مني اصراري على الرفض .. مع ذلك كان له وحده الفضل الأكبر في تعليمي أساسيات ليس الدخول لهذا العالم فقط بل والمكوث فيه والغرق في أعماقه .. كما أن بريدي الإلكتروني كان له فضل اختيار نصف اسمه بعد أن عجزت أجهزة مقهاه على تثبيت وقبول الاسم الذي اخترته ليكون عنواني أمام العالمين .. استخدم عدة حيل صغيرة ليتمكن من تسجيل عنوان البريد .. تَفَطَنَ لها المتربصون والمتوجسون من دخولي لهذا العالم من الجهة المقابلة للشاشة .. فرفضوها كلها بإصرار وعناد .. اضطر لإضافة ثمانية أرقام كاملة لينتزع لي منهم بعدها عنواني البريدي الذي أحتفظ به حتى اليوم .

3

رضختُ ..

تنازلتُ عن عنادي .. في البداية كان دخولي لعالم وليد الجديد لماماً .. يعني بتعبير شعبي أني كنتُ أقف على العتبة .. لا أُحسب في زمرة هؤلاء المدمنين الذين لا يغادرون مقهاه ولا يمكن إضافتي إلى زمرة أولئك اللامبالين بهذا العالم الجديد المثير .. كنتُ في منزلة بين المنزلتين أو الزمرتين كرجال الأعراف .. ألجه لدقائق معدودات وأفر منه فرار السليم من الأجرب .. وفرار طريدة من صياد ماهر .

عادة ما أتصفح المواقع التي يقترحها عليّ وليد .. كان أغلبها منتديات رياضية أو شبابية ترفيهية تلك كانت أهم أهتمامات صديقي .. شيئاً فشيئاً تمكن من ترويضي وهزيمتي والنيل مني .. صارت جلساتي تطول في مقهاه وتتجاوز الساعة أحياناً .

صرتُ أتعمد الغياب عن مقهاه بعد أن هزمني عالمه و حتى لا أعترف مبكراً بالهزيمة .. مشكلة وليد أنه يرفض أن يأخذ مني ثمن دخولي لعالمه الأثير ما يوقعني في حرج شديد لذا كنتُ أفضل الدخول من مكان آخر إلى عالم الإنترنت من غير مقهاه مستفيداً من دروسه .. ربما هرباً من شماتته .

4

أذكر أن أول كلمة كتبتها على محرك البحث الشهير جوجل كانت باللغة الإنحليزية هي كلمة :

"GHADAMES"

طبعتُ حروفها بأناقة وتؤدة فللاسم والمسمى مكانة لا يمكن وصفها في نفسي .. لا أعلم سبباً لطباعتها باللغة الإنجليزية بدل العربية .. تفكرتُ في ذلك لاحقاً .. توصلتُ لجواب مقنع لهذا السؤال .. كان الجواب الذي ارتحت له يكمن في أن الناطقين بتلك اللغة أكثر تقديراً لهذا الاسم من غيرهم .

انهالت عليّ الصفحات رغم بطء وثقل أداء الشبكة في ذلك الوقت المبكر لدخولها للبلاد .. تصفحتها صفحةً صفحة .. اقرأ سطراً أو سطرين أتمعن في الصور الجميلة المرفقة .. أحاول معرفة كاتب الأسطر أو جنسيته على الأقل .. أغادرها لغيرها من الصفحات لاعناً ضعف لغتي الإنجليزية وانعدام معرفتي بباقي اللغات التي يتحدث بها الآخرون .. متحسراً على شبابٍ ضيعته في ما لا طائل من ورائه .. كنتُ أحسدهم كثيراً لاستطاعتهم أن يكتبوا عن واحتي العظيمة بكل تلك اللغات العالمية .. تمنيتُ لو استطيع قراءة ما كتبوا والتعليق عليه وإصلاح ما أخطئوا فيه أو شكرهم على ما كتبوه .. كنتُ على يقين أنهم هضموا حقا أصيلاً

لواحتي لابد من استدراكه لكن هيهات أنّى لي ذلك .. كان حلماً بعيد التحقق بتلك اللغات المجهولة والمطلسمة لي .

أعلنتُ ذات يوم لوليد عن حلمي ..

لم يهزأ من حلمي وهذا ما جعلني أرويه له بكل تفاصيله .. ربما هذا أهم ما يتميز به وليد عن باقي أصدقائي ..

قدم لي حلاً كعادته .. جعبته لا تخلو من حل أو فكرة أو رأي .

5

علمني وليد كيف أدخل هذا العالم وأستمتع به .. لكنه لم يعلمني كيف أخرج منه ولا أعتقد أن أحداً يمكنه معرفة السبيل إلى ذلك حتى لو رغب في ذلك .. زجّ بي فيه وغلّق خلفي الأبواب .

لقد تورّطتُ فيه ورطة لافكاك منها ... صرتُ كالدّب الذي أثار خلية النحل لم يجنِ من ذلك سوى لسعات النحل ... أما العسل فبعيد المنال .. لكني كنت أرجو أن ألعق العسل في النهاية متحملاً كل تلك اللسعات .

هذا العالم المتاهة .

من ولجه يستحيل أن يخرج منه كما دخل .. إنه الحكم المؤبد بالبقاء فيه .. لا فكاك ولا فرار منه .. لهذا كنتُ أصرّ في البداية على الرفض رغم إلحاح وليد .. فالدخول المتأخر يكفل لي الحفاظ على شيء من حريتي ..

هكذا كنتُ أعتقد .. كنتُ أخشى الإدمان كثيراً فلا أعتقد أن في قلبي متسعاً لمعشوقٍ ثالث .

6

إدمان القراءة ... العدو الذي أحب صداقته .

النقيضان : القراءة وكرة القدم .. هما كل ما يثيرني .

عالمان ربما يراهما أغلب الناس متناقضين .. يصر بعض المتطرفين وغلاة المجادلين أنه يستحيل الجمع بينهما .. لكني استطعت أن أؤلف بينهما وأن ينالا نفس الحظوة والمكانة تقريباً في نفسي ..

تعلقتُ بهما في فترة المراهقة ولم أستطع فكاكاً من أسرهما وعشقهما .. قبل ذلك كان الأمر عادياً .. لكن في المرحلة الثانوية بدأت تتضح معالم ذلك العشق جلية وواضحة .. على الرغم من دخول التدخين كضلع ثالث ليشكل معهما مثلث الإدمان والاستحواذ الذي أغلق عليّ أضلاعه .. لكنه لم يحظ بنفس المكانة التي تقاسمها حبي للقراءة وشغفي لكل ما يتعلق بكرة القدم لعباً وممارسةً وقراءةً وجِدالاً .

تخليتُ عن التدخين في وقت مبكر لأسباب مجهولة .. تقاسم الغريمان الفراغ الذي تركه فصار وقت فراغي مقسماً بين القراءة وكرة القدم .. في الحقيقة لم يكن هناك وقت فراغ بالمعنى المفهوم للكلمة .. لنقل أنهما تقاسما عالمي كله .

في الآونة الأخيرة كان جلّ اهتمامي منصبّاً على قراءة كتب التاريخ القديم والحديث والقليل من الروايات والأدب .. كما أن عشقي للروايات التاريخية ازداد في هذه المرحلة .. كنت أعلم أن عالم الإنترنت ينتظر بفارغ الصبر أن يجد موطئ قدم له في نفسي ليزيح الآخرين بسهولة .

منحني مفتاحاً مهماً للاستمتاع .

7

المنتديات ...

كان السبب في تغيير مجرى حياتي وقلبها رأساً على عقب .. كان للكلمة وقع عادي في أول الأمر .. فالمنتدى حسب معرفتي البسيطة هو مكان يجتمع فيه أناس يربطهم رابط ما .. هنا لم يختلف الأمر سوى أن أولئك الأناس لا يلتقون ولا يتواجدون في المكان بأبدانهم بل من خلال حواسيبهم .. يظل رباط ما يجمعهم من خلف الشاشات .. كل ما عليك فعله حسب توجيهات وليد أن تنقر على لوحة المفاتيح اسم الشيء الذي ترغب في الاستمتاع به مسبوقا بكلمة منتدى .. هذا ما قاله وليد باختصار وهذا ما كنت أقوم به على وجه الدقة .

وجدتُ نفسي بعد جلسة واحدة عضواً عالقاً وغارقاً في الكثير من المنتديات الرائعة .. أغلبها منتديات رياضية وشبابية وترفيهية .

ذات أمسية أثناء بحثي عن منتدى أقضي فيه وقت فراغي الممل خاصةً أن ما تزودتُ به من كتب قد نفذ ولا مفر من زيارة وليد .. كان المنتدى الذي ولجته هذه المرة يبحث في الآثار والتاريخ ..

كان تصميمه رائعاً لافتاً ربما ذلك ما جعل عدد منتسبيه يتجاوز الآلاف العشرة إضافة لنوعية رواده والمواضيع الدسمة المطروحة بأساليب مبسطة تغري بالقراءة والتفاعل .. اسم المنتدى كذلك كان لافتاً ومحفزاً للدخول إليه : "مجالس تاريخية "

أعتقد أنك توافقني على جمال الاسم .

أما تنوع مجالسه الفرعية وثرائها فسبب آخر لروعته .

تجولتُ هنا وهناك للوقوف على محتواه .. قرأتُ أكثر من موضوع بعد تصفحي للعناوين .. حفظتُ على سطح جهازي الكثير من الصفحات التي أعجبني محتواها لأعود للاستمتاع بقراءتها في وقت لاحق على مهل .

دخلتُ لمجلس تاريخ الصحراء .. وجدت فيه غاية مرادي ومطلبي .. منذ تلك الزيارة لم أتوقف عن متابعة كل جديد المنتدى بجميع مجالسه بل ومراجعة ما سبق نشره فيها .

كان أكثر ما شدني موضوع يتحدث عن واحتي باستفاضة العارف الخبير الملم بالخفايا .. كان هذا ربما أهم سبب لإدمان التواجد في المنتدى ومجلس الصحراء بالأخص .. صار المنتدى الأول الذي ألجه .. بعدها أصبح المكان الوحيد الذي أقضي فيه جل وقتي على الإنترنت .. بل وجدتُ نفسي أتفرغ له خصيصاً .

8

تحررت ....

لم أعد بحاجة للذهاب إلى مقهى صديقي وليد من أجل الدخول إلى عالم الانترنت .. صار بالإمكان توصيل الخدمة إلى البيت وهذه إحدى حسنات التطور التكنولوجي .. اختفى مقهى وليد وغيرها من المقاهي تباعاً بعد انتشار خدمة الانترنت في البيوت .. أعلنتُ له عن رغبتي في الحصول على الخدمة في بيتي .

كان هذا إعلاناً صريحاً بالهزيمة في معركتي مع هذه التكنولوجيا .. هزائمي تتلاحق في هذا العالم ولا أبالي بها .. إنها هزائم ممتعة .. وقعتُ في براثن إدمان الإنترنت .

ذكرني وليد بما قاله لي ذات يوم ليس بالبعيد ..

وصلت الخدمة لبيتي .. قطعتُ جل الحبال التي تربطني بعالم الكرة .. بقي خيط وحيد أوهن من خيط العنكبوت اكتفيت بمتابعتها عبر الشاشات فقط ... مرات قليلة ألعبها حين أزور واحتي في إجازاتي التي باتت قصيرة جداً ومتباعدة بعد زواجي .. مباراة الاعتزال لم ألعبها بعد ..

تركت الباب موارباً فربما أعود بقوة يوما ما لعالم كان يستحوذ عليّ ذات يوم .

9

شغفي بالمنتدى – مجالس تاريخية - استمر وتواصل وتضاعف .

صرتُ عضواً بارزاً فيه .. اسمي الذي اخترته لعضويتي في المنتدى كان " ورنوغن العظيم " اخترتُ هذا الاسم لإعجابي الشديد بشخصية الملك الأشهر في تاريخ واحتنا ورنوغن .. رغم شح المعلومات عنه وندرتها لكن شيئاً ما شدني للاسم .

نشرتُ بعض مقالات قصيرة حول تاريخ واحتي غدامس .. وقعتها بـ " ورنوغن العظيم " لاقت استحساناً طيباً .. كانت سبباً لتبادلُ المراسلة مع بعض رواده .. كان القاسم المشترك بيننا هو حب المعرفة والرغبة في الاستزادة .. لاتزال تربطني أواصر الصداقة الإلكترونية مع أغلبهم حتى الآن بل توطدت بعد اختراع وسائل تواصل أخرى أكثر إثارة وأسهل استعمالا وأكثر انتشاراً .. على أمل أن نخطوا خطوة أخيرة وهي اللقاء ذات يوم .

10

ظهر اسم الحجر لأول مرة ...

تلك الليلة لم أنمها ..

لأول مرة أتعرف على حجر غدامس كان من خلال ذلك المنتدى "مجالس تاريخية " ..

تلك الليلة كانت عظيمةً مبهجةً بالنسبة لي .. كان الكاتب " ابن مورينا " مميزا في مواضيعه .. لفت انتباهي وحاز على إعجابي منذ أول مقال ينشره بالإضافة إلى إعجابي بالاسم الذي اختاره ليوقع به على مقالاته . "مورينا " .

قليل من يعرفها الآن بعد أن كانت ملء السمع والبصر .. فهي إحدى ملكات هذه الصحراء .. يقال أنها استوطنت واحتنا ذات يوم .. وقد رويت عنها من الأساطير الكثير من الأعاجيب .. هذا عدا أن في واحتي يوماً من أيام العرس اسمه يوم مورينا فلا أعلم إذا كان يقصد به هذه الملكة أم شخصية أخرى تحمل نفس الاسم .. أعتقد أن هذا ما لفت انتباهي وكان سبباً لمتابعتي لمنشوراته .

دائماً مانحتاج لرابط ما يكون سبباً لما بعده .

كان منشوره تلك الليلة قصيراً نقل فيه مقتطفات من كتاب أحد الرحالة الذين زاروا واحتنا في القرن السابق ..

كان موضوع مقاله يتحدث عن أثر النحت في تكوين صورة قريبة جداً لحياة الاقدمين فكتب :

"يشير دي فيتا إلى أهمية الإفريز الذي عثر عليه في غدامس ، ويرى إنه عبارة عن تمثال مكرس لأحد الآلهة يجلس أمامه أحد المتعبدين ومعه خادمه في حالة تقديس ، وأن المشهد يبدو وكأنه يمثل شيخ قبيلة بشعره المتدلي وتسريحته المعهودة ، كما وأن تنفيذه قد تم من قبل نحات ليبي ، ويضيف بأن لهذا النصب التذكاري أو التمثال قيمة وثائقية

تدل على مدى عمق الاختراق للثقافة البونية في إقليم طرابلس منذ عهود قديمة جدا "

ابن مورينا

هذا كل ما نقله "ابن مورينا" من مكان ما .. قرأتُ المنشور كاملاً عدة مرات .. قرأتُ هذه الفقرة وحدها عدة مرات .. أردتُ توضيحاً أكثر .. من هو دي فيتا؟ .. من يكون ؟ ..

تحمستُ كعادتي ..

كعادتي أيضاً حفظت المقال في مجلد خاص على جهازي ليتسنى لي قراءته في أي وقت .. أعدتُ قراءة المنشور عدة مراتٍ قبل أن أتجهز لطرح الأسئلة .

سألته في خانة الردود والتعليقات بعد أن عبرتُ له عن شكري العظيم وامتناني الكبير على موضوعه الرائع والمهم .. طرحتُ عليه سؤالاً واحداً.

كل ما طلبته منه هو اسم الرحّالة الذي نقل عنه أو عنوان الكتاب الذي نقل منه مقتطفات الرحالة .

كان من المفترض أن يكتب مصدر معلومته التي نشرها كما تقتضي الأعراف .. ربما لم يتعمد تجاهلها .. هذا ما جعلني أسأله .. اعتقدتُ أن الأمر طبيعي وأنه سيبادر بإجابة سؤالي الوحيد والبسيط بعد قليل من كتابته .

سهرتُ تلك الليلة في انتظر الإجابة دون فائدة .

أين انت يا "ابن مورينا" ؟

راسلته عبر الإيميل طالباً تفصيلاً أكثر حول الموضوع .

لكن " ابن مورينا " لم يرد على استفساري .. أعدتُ إرسال الإيميل في اليوم التالي .. مر يوم ويومان وثلاثة ولا مجيب .. على الرغم من أنه لم يكن غائباً عن المنتدى بل كان متجاهلاً لي وحسب .. كان يمكن ملاحظة ذلك بوضح من خلال نشره لمنشورات أخرى ومقتطفات من هنا وهناك .. نبهته إلى إيميلاتي عبر خانة الردود والتعليقات .

لكنه لم يأبه ! .

لماذا يا "ابن مورينا " كل هذا الصمت ؟ ..

هل اعتبر سؤالي عن المصدر تكذيباً له أو تحقيراً لمنشوره ؟ ..

ضاع الخيط .. تحسرتُ على ضياعه كثيراً .

تباً لك يا " ابن مورينا " .

قررتُ الاعتماد على نفسي لمعرفة المزيد ..

سأبحث عن خيط آخر أتشبث به ..

سنرى !

نقرتُ أحرف الكلمة بحثاً عن نتائج قد تزيل الغموض .. أسفرت نتائج البحث عن لا شيء .. في الحقيقة أن محرك البحث وجد مطلبي .. خيار واحد فقط .

أسرعتُ في الدخول إلى حيث أشار عليّ محرك البحث .. أعادني إلى المنتدى من جديد !

ضحكت كثيراً .. الطريف أن محرك البحث أشار لي إلى نتائج أخرى ليس من بينها مطلبي .

11

بحثتُ عن طريق الصور فربما يكون الحال أفضل ..

كانت النتائج سلبية محبطة .. كانت النتيجة واحدة في كل مرة .. ما إن يعجز محرك البحث عن تلبية طلبي حتى يقترح عليّ :

" هل تقصد حجر رشيد " ؟ .

في محاولة لتبرير عجزه أو ربما تقديم خدمة مماثلة قد تغنيني عن بحثي الذي عجز عن الوصول اليه في شبكة هائلة من المعلومات .

من باب التسلية وتزجية الوقت قمت بالموافقة على خيار محرك البحث .

حجر الرشيد ..

نقرت حروف الكلمة من جديد في محرك البحث .

آلاف الصفحات تتحدث عنه .. بينما حجر واحتي لا بواكي له .

فضولي جعلني أتصفح بعضها .. لم تكن المرة الأولى التي أسمع بهذا الحجر .. لكني أردتُ تمضية الوقت حتى أخرج من حالة الإحباط التي أعاني منها .

نقرتُ بالمؤشر على إحدى الخيارات المتاحة للإطلاع عليه أكثر .. كتبتُ خلاصة ما قرأته عن الحجر .. فربما يصلح للنشر في منتداي المفضل " مجالس تاريخية " .

حجر رشيد..

1

عندما غزا نابليون مصر في أواخر القرن الثامن عشر بجيوشه الجرارة المدججة بأحدث آلات القتل والدمار والخراب ... كانت حسنته الوحيدة أنه اصطحب معه جيشاً صغيراً من العلماء والباحثين والرسامين .

كان يرغب في اكتشاف هذه المنطقة التي كانت سيدة العالم أكثر من مرة لقرون طويلة مديدة .. فهي في عهود الأسر الفرعونية الثلاثين كانت رائدة العالم القديم ... كما أنها حظيت بمكانة رفيعة في عهد النهضة الإسلامية ... فكان لابد من الوقوف على أسباب هذه الريادة في كل عصر .

2

لم يكن هدفه الحقيقي خافياً على أحد ... كان حلمه الذي يراوده آناء صحوه وأثناء منامه هو أن يصبح أقوى رجل في العالم أسوة بالأسكندر .. كان على يقين أن لا ولن يتأتى له تحقيق حلم اليقظة والمنام إلا بالسيطرة على مصر والشام .. ذلك فقط ما يخوله لأن يكون سيداً أوحد

للعالم .. كما لا يجهل أحد أن سلفه الأسكندر خطا نفس هذه الخطوة قبل مولده بقرون طويلة .

3

كانت بريطانيا العظمى سيدة البحار تراقب وتترقب .. لم تقف مكتوفة الأيدي فثمن السيادة باهظ ... كانت تضع الخطط اللازمة ليس لإفشال الحملة فقط بل أن يحكموا هم السيطرة الفعلية على كل هذه الأقاليم وضمها لعرش مملكة بلاد الضباب .

4

فشل نابليون في حملته العسكرية فشلاً ذريعاً .. لكن حملته العلمية لم تكن كذلك .

انتشر جيشه الصغير في كل أرجاء مصر بحثاً وفحصاً وتنقيباً عن كل شيء ... نباتاً وحيواناً .. بشراً وحجراً .. أرضاً وسماءً .. تاريخياً وجغرافيةً .

والأهم من كل ذلك كان التركيز على الآثار وما خلفته حضارة الفراعنة من تراث ضخم .

5

وقعت الحادثة بمحض الصدفة .

في مدينة رشيد الساحلية الهامة احتاج جيشه المتراجع من خسارة حربه في الشام لحفر خنادق يحتمي خلفها لصد المقاومين عن بلدهم بشراسة واستماتة .

اصطدمت فأس أحدهم بحجرٍ ..

منذ الوهلة الأولى كان يعلم أن حجره لم يكن كغيره من الأحجار .. أزاحوا ما أحاط به من تراب .. اتضحت معالمه جلية بعد تنظيفه وإزالة ماعلق به من تراب .

كان يحمل على ظهره نقوشاً قديمة .. كان ضخما في حجمه أيضاً .. ببساطة اكتشف الحفّار أن فأسه وقع على كنز مهم .

هرعوا به إلى رجال الآثار في الحملة ...

حمل منذ ذلك اليوم اسم حجر رشيد .

كما عودنا التاريخ تناسى أن يذكر صاحب تلك الفأس التي أظهرت الحجر الأهم في العالم .

6

فشلت فرنسا في حملتها على مصر والشام ..

اندحرت عساكرها أمام مقاومة أهل البلدين .. هجم الطاعون ليكون عوناً لأهل البلد على المحتل فكان قاصمة الظهر .. هذا عدا تدخل الإنجليز سراً وعلانية .

قرروا حفظ ماء الوجه والمغادرة إلى ديارهم ..

فالاعتراف بالفشل يعتبر نصراً في حد ذاته .

7

عندما تكون قويا يحق لك ما لا يحق للآخرين .

سوء الهزائم تلك التي تخضعك لعدوك ..

اشترط الإنجليز أسياد العالم وأصحاب الإمبراطورية التي قرروا أن لا تغيب عنها الشمس حينها وإمعاناً في إذلال خصمهم أن يقوموا هم بنقلهم إلى ديارهم بعد إحراقهم لكل سفن الأسطول الفرنسي في أبي قير في الواقعة الشهيرة بين الجارين اللدودين .. كان من الضروري مغادرة مصر على وجه السرعة .

وقع حجر رشيد بين أيديهم أثناء تفتيشهم للجنود والعتاد قبل الصعود للسفن التي تقلهم لبلادهم .. كان الحجر من الضخامة بحيث يصعب إخفائه بل يستحيل .. انتزعوه من الجيش المغلوب .. انتقل إلى حوزة الغالب المسيطر .. نقلوه إلى لندن على عجل .

كان تحسر الفرنسيين على ضياع الحجر أكثر من تحسرهم على فشل الحملة واحتراق الأسطول الذي عولوا عليه للسيطرة على العالم .

لعلمه أن بناء الأساطيل سهل لكن إعادة الحجر أقرب إلى المستحيل .

8

انكب الانجليز على فحص الحجر ومحاولة قراءة ما كتب على ظهره . كل ما توصلوا إليه طيلة عشرين عاماً من الفحص والدرس والكشف والمحاولة هو أن على ظهر الحجر ثلاثة أنواع مختلفة من الكتابة .. إحداها نص مكتوب على أربع وخمسين سطراً باللغة اليونانية القديمة .. أما الأخرى فكانت شبيهة بتلك التي نقشت على جدران المعابد المصرية وسميت بالهيروغليفية أو اللغة المصرية المقدسة لغة كهنة المعابد والفراعنة .. أما الكتابة الثالثة فكانت اللغة المصرية الشعبية لغة العامة والغوغاء ..

هذا كل ما تمكنوا من معرفته !

9

التسليم لا يعني التفريط .. تسليمهم بالعجز لا يعني تفريطهم بالكنز . قرروا بعد عقدين من العجز أن يرسلوا صوراً للكتابة التي على ظهر الحجر لكل أنحاء أوروبا فربما ينجح غيرهم فيما فشلوا هم فيه لمدة عقدين من المحاولات .. كان لابد من معرفة ما حمله الحجر على ظهره حتى لو كان ذلك على حساب كرامة الإمبراطورية .

وصلت صورة للغريمة فرنسا كما وصلت لباقي العواصم المتحضرة ..

10

قبل انطلاق الحملة إلى مصر بسبع سنين في إحدى المدن الفرنسية ولد صبي .. سماه أبواه شامبليون .. لم يكن له حظ بتلقي تعليمه في مدارس ذلك الوقت .. لكنه تعلم في مكان آخر .. قيل أنه برع في تعلم اللغات القديمة .. صار يتقن اللاتينية واليونانية والاغريقية القديمة وأشياء أخرى كثيرة .

وصل الحجر إلى لندن بعد أن صار للصبي من العمر اثنا عشر عاماً .. ربما لم يسمع به حينها .. لكن بعد أن بلغ له من العمر ثلاثين عاماً وقعت صورة للحجر بين يديه ..

ابتسم في مكر .

إنها فرصة للثأر من عدو قديم .

11

غلّق عليه الأبواب .. انفرد بصورة الحجر .. عكف عليها بحثاً وتدقيقاً وفحصاً .. استعان بمعرفته باللغات القديمة التي كان يجيدها .

قرأ بسهولة ويسر الأربعة والخمسين سطراً المنقوشة باليونانية القديمة .. تحدثت ولخّصت تلك الأسطر عن بطليموس الخامس وما قام به من أعمال جليلة .. ذكرت كذلك القرابين وأسماء بعض الآلهة والقادة وغيرهم من الأعلام .

بدأ محاولته لفك شفرة تلك اللغة بفكرة بسيطة .. لم تخطر على عقول الإنجليز طيلة عشرين عاماً من بقاء الحجر في حوزتهم .

افترض أن الحجر يحتوي على نص باليونانية القديمة وترجمتين لهذا النص إحداهما بالهيروغليفية لغة الملوك والمعابد والأخرى باللغة الديموطيقية وهي العامية أو الدارجة أو لغة الشعب .. من هنا انطلق لحل أهم لغز حير العلماء وهو لغز الحضارة الفرعونية القديمة .

كان مفتاح فك التشفير الذي اختاره يكمن في أسماء الأعلام المذكورة في النص اليوناني .. كرس جهده للوصول إليها في النصين الآخرين .. بطليموس تكرر ذكره عدة مرات في النقش اليوناني .. كان أول اسم فك شفرته .. بحث عنه في النص المصري إلى أن اطمئن إلى مكانه من النص لتكرار رسمه خمس مرات .

أخذ بعدها اسماً آخر وأعاد التجربة .

توالت النجاحات .

لم يمض طويل وقت حتى صار الحجر معروفاً ومقروءً لشامبليون .. نجح الشاب في فك أهم طلسم حير العلماء طويلاً .. رفع الستار .. انجلت سحابة كثيفة من الجهل .. بذلك الإكتشاف استطاع العالم أن يعرف الكثير عن الفراعنة .. لم يشعل شمعة في ذلك النفق فحسب بل فتح نافذة كبيرة لدخول ضوء الشمس لتنير المكان .

أعاد لفرنسا هيبتها .. انتزع لها نصراً من غريمتها اللدودة دون الحاجة لأساطيل بونابرت ولا جيوش كليبر ولا لواترلو جديدة .. حقق كل ذلك دون أن يطلق رصاصة واحدة .

وضع ذلك الشاب النحيف أول أبجدية للغة المصرية القديمة .. صار باستطاعته أن يقرأ ما نقش على جدران المعابد المصرية القديمة والمقابر والأهرامات كما يقرأ صحيفة يومية .. بل ويتحدث بلغة الفراعين ولغة العوام بنفس المهارة أيضاً .

يقال ان حملة نابليون فشة فشلا ذريعاً في تنفيذ اهدافها .. يستثني البعض أن اكتشافهم لحجر رشيد كان حسنتهم الوحيدة بالاضافة إلى ادخال للألة الطباعة لأول مرة لمصر .

حفظ شامبليون ماء وجه فرنسا في صراعها مع بريطانيا دون الحاجة لتجريد الجيوش والأساطيل .

كل ذلك أتاحه له حله للغز حجر رشيد .

فماذا يحمل حجرنا " حجر غدامس " يا ترى ؟

تباً لك " ابن مورينا " كانت إجابة منك من عدة كلمات تشفي غليلي .. لكني لن أتوقف .. أنا ورنوغن العظيم .. هل تعرف ماذا يعني ذلك؟

إنه يعني التحدي .

وأنا قبلت التحدي .

خيط رفيع ..

1

كلما زادت معرفتك زاد جهلك .. وزادت حاجتك لمزيد من المعرفة .

بعد انتهائي من قراءة ما كُتب عن حجر رشيد .. ازدادت رغبتي في معرفة المزيد عن حجر واحتي .. بل اشتعلت نيران الفضول في داخلي وزاد أوارها .. فالمعرفة أشبه بالنار دائماً بحاجة للمزيد لتلتهمه .

انتهجتُ طريقة أخرى في بحثي ..

هذه المرة استعملتُ الهاتف في البحث .. اتصلتُ ببعض أصدقائي المهتمين بالشأن التاريخي لواحتي .. استهلكتُ رصيداً كاملاً لأحصل على معلومات قيمة .. لكنها لا تمتُ الى الحجر بصلة قربى .. أكد لي أحدهم وجود أكثر من حجر منحوتِ عليه رسومٌ مختلفة .. فرحت لهذا الخبر . لكن بعد أن شرحتُ له ما تخيلته من نحت حسب وصف دي فيتا الذي أدرجه " ابن مورينا " .. نفى نفياً قاطعاً رؤيته لحجر يحمل مثل هذا الوصف .

لكني عملتُ بنصح أحدهم بالبحث في كتب الرحالة الذين زاروا واحتنا .. فأحدهم هو من تحدث عن الحجر ورآه عند زيارته .

لم يكن هناك أفكار بديلة ..

لجئتُ من جديد إلى محرك البحث .. هذه المرة كان بحثي عن الرحالة الذين زاروا بلادنا .. كانت نتائج البحث كثيرة .. كدتُ أصاب بالإحباط .. فعليّ قراءة كل تلك الكتب من أجل حجر! .

هكذا كانت تعاتبني نفسي الأمارة بالخمول المستكينة للإحباط ..

لكنه ليس أي حجر .. إنه حجر غدامس .. بهذا كانت ترد عليها نفسي التواقة لمعرفة كل جديد عن واحتي المغرقة في القدم والغموض .

تأججت نيراني تطلب مزيداً من المعرفة .

2

بدأت بترتيب النتائج حسب تواريخ قدوم الرحالة .. احتاج مني هذا العمل عدة ساعات .. كانت القائمة طويلة .. تجاوز عدد الرحالة الخمس وعشرون رحالة .. التنقيب في مذكراتهم يحتاج لفريق كامل يعمل دون كلل ولا ملل ودون أجر للوصول لهدف واحد .. أي معلومة عن الحجر..

سبب طول القائمة وتنوعها كون بلادنا كانت أهم مدخل يؤدي إلى إفريقيا .. لا أعتقد أنه الوحيد ربما كونه الأفضل أو الأسهل وقد يكون الأكثر أمناً ..

قرأت في مكان لم اعد اذكره قول يؤكد هذه الحقيقة اعتقد ان قائله هو العقيد وارنجتون قنصل انجلترا في طرابلس في الفترة التي كثرت فيها هذه الرحلات .. قال : " إن الطريق من طرابلس إلى برنو مفتوحة كما هي الطريق من لندن إلى ادنبرغ " .. هذا أيضاً ما صرح به جل الرحالة

الذين سبق أن قرأتُ كتبهم .. لم يكن عدد ما قرأته كثيراً .. مع ذلك لابد من إعادة قراءة كل شيء من جديد .

شبكة المعلومات كانت خالية من كتبهم .. لا أعلم إذا كان هناك كتب لهم بلغتهم الأصلية أما بلغتنا العربية فلا وجود لسطرٍ واحد إلا نتف نقلت هنا أو هناك على لسانهم في منتديات مختلفة ومختلطة ليس منها منتداي المفضل "مجالس تاريخية ".

تباً لك " ابن مورينا " وتب .

3

للبحث وسائل مختلفة ..

مكتبة الفرجاني في العاصمة طرابلس كانت وجهتي الأولى .. كنتُ زبوناً لفروعها الثلاثة منذ سنوات طويلة .. هذه المرة ذهبتُ بناءً على مشورة صديقي وأستاذي أبوبكر .. إنه يعد علامة فارقة - أعني بذلك استاذي أبوبكر - .. ربما كلمة مهتم وشغوف لا تصفه بشكل صحيح .. إنه من ذلك النوع النادر من البشر الذي يمكنه أن يحفظ مقاطع طويلة مما كتب عن غدامس كما يحفظ مواقعها في الكتب ومواقع تلك الكتب في أرفف المكتبات .. هذا عدا قدرته على تحليل وربط كل ما يقرؤه بما سبق وعرفه أو قرأه .

هل قلت أنه علامة فارقة؟

زودني أستاذي أبوبكر بما في مكتبته الفريدة من كتب الرحالة .

الفرجاني كذلك علامة فارقة ..

فهو قد تخصص في طباعة ونشر كل ما كُتب وألف عن ليبيا ... يكفي أن تقرأ عنوان الكتاب لتعرف أنه من نشر دار الفرجاني .. كانت مكتبته القريبة من ميدان الشهداء المفضلة لدي .. ليس لقربها من الميدان لكن لقدم معرفتي بها ولما تحويه من أصناف الكتب التي أقف فاغراً فاي أمام عناوينها المميزة وأسماء أصحابها المشاهير الذين قاموا بتسطير كل تلك الأوراق وجمعها في كتب ضخمة .

وقفتُ أمام الأرفف الأنيقة المثقلة بكتب التاريخ والتراث .. في الواجهة المعاكسة كانت الأرفف تعج بالروايات والدواوين الشعرية من مختلف بقاع العالم .. اشتريتُ من مكتبة الفرجاني بعض الكتب التي احتجتها في بحثي .

لم أتحصل على كل ما أريده .. بعض الكتب غير مترجمة بعد كما أفاد صاحب المكتبة مؤكداً بذلك ما سبق أن تأسف له أستاذي من قبل .. كما إني وجدتُ في المكتبة كتباً لرحالة آخرين خارج نتائج بحثي .. سجلتُ اسمائهم للبحث عنهم في الشبكة العنكبوتية قبل التورط بشراء كتبهم .

بدأتُ رحلة القراءة ..

رتبتها حسب تواريخ قدوم أصحابها .. شرعتُ في تصفحها بقراءة فهارسها وقراءة نتف من فصولها .. اندمجتُ أحياناً كثيرة بين الصفحات لأجد نفسي متورطاً في إضاعة وقت طويل في قراءة مواضيع لا علاقة لها بموضوع بحثي .. لكنها غريزة الفضول اللعينة .. سرعان ما أثوب

الى رشدي فأعود لمواصلة خطتي التي انتهجتها .. سجلتُ نتائج قراءتي السريعة وملاحظاتي فكانت كالآتي :

كانت البداية تقريباً بعد اندلاع الثورة الصناعية التي عمت كافة أوروبا .. اشتعلت حمى الرحلات بشكل كبير وملحوظ .. كانت الدول الغربية بحاجة ماسة للمواد الخام لتدوير عجلات مصانعها الكثيرة .. اتجهت إلى القارة السمراء بحثاً عن مطلبها المُلح .. كانت – تلك الدول - بحاجة كذلك لأسواق لتصريف منتجات هذه المصانع .

القارة السمراء تعتبر كنزاً مجهولاً ومكان غامضاً لابد من معرفته .. أرسلت البعثات المختلفة تحت مختلف الذرائع للتعرف على أحوال تلك البلدان وأحوال أهلها .. اتسمت بعضها بطابع تبشيري ديني .. بعض الرحالة كانوا يمارسون الطب لكسب ود أهالي القارة التي تجتاحها الأمراض وتحصد أرواحهم ببساطة ودون عناء .. تستّر البعض بستار الإسلام لاكتساب ثقة أكبر .

كثيرون لم يكملوا رحلاتهم .. منهم من قتل في بداية رحلته ومنهم من مات بسبب الأمراض .. بعضهم عاد مضفّراً إلى بلده حاملاً معه كنزاً معرفياً مهماً عن الحياة في تلك المناطق ووصفاً دقيقاً لأرضها وبشرها وحجرها ونباتها .

ربما ذلك كان المكسب الوحيد لأبناء القارة بعد ما لاقوه من معاناة بسبب أطماع من أرسل أولئك الرحالة .. كانوا أولى طلائع الاستعمار الذي عانى من نيره كل أهل القارة السوداء .

هناك من دخل القارة من أجل الترفيه فقط مثل الهولندية الثرية التي لقت حتفها في صحرائنا ويجهل مكان قبرها إلى اليوم ولم يعرف كذلك سبب قتلها .

هناك من كان يبحث عن مجد شخصي بعد أن نال مكتشفو القارات الجديدة شهرة كبيرة لدى ملوك بلدانهم فقلدوهم النياشين والأوسمة .. فدخلوا القارة بحثاً عن اكتشاف يرفع من شأنهم ويدخلهم التاريخ من هذا الباب مثل الميجور لينج الذي قُتل أيضاً في صحراء بلادنا .

دونتُ ملاحظاتي وكل ما توصلتُ إليه عن أولئك الرحالة لتسهل مهمة بحثي :

كيف تحصّل " ابن مورينا " على معلومته عن الحجر ؟

لابد أنّ من أشار إليه قد زار غدامس ورآه هذا أمر مفروغ منه ومؤكد أو نقله عمن رآه .. هذا ما يجعلني أستبعد كل أولئك الرحالة الذين لم يزوروا غدامس ليتقلص طول القائمة إلى النصف تقريباً .. أو ربما نقلها من مصدرٍ آخر .. لاشك أن هذا المصدر يمتُ بصلةٍ وطيدةٍ بالرحالة الذي أشار إليها وبالتالي لابد أن يكون قد أصدر مذكراته في كتاب هذا ما يجعلني أواصل بحثي على أمل الوصول لحجري .

لن أتراجع يا " ابن مورينا " .. سأتتبع هذا الخيط إلى نهايته .

تباً لك من جديد .

التنقيب . . .

1

أول القادمين حسب ما أفادته شبكة الانترنت كان طبيباً فرنسياً يدعى كلود جرانجيه .. كان ذلك في سنة 1733 م .. مكث في بلادنا قرابة العام .. تعتبر تلك فترة طويلة في ذلك الوقت المبكر .

كان طبيباً في بدايته .. لم تكن زيارته لبلادنا هي الأولى لهذه الصحراء .. فقد كان قبلها طبيباً في تونس التي مكث فيها حوالي الخمس سنوات .. عاد بعدها إلى بلاده فرنسا ليعين بعد وقت قصير في حدائق قصر الملك .. أُرسل إلى مصر بعدها ليمكث بها عامين من أجل إعداد دراسة للتاريخ الطبيعي في مصر .

رافق بعد سنتين سفير فرنسا جان بيير بينيون المتوجه إلى بلادنا .. بعد مغادرته لبلادنا زار العديد من البلدان الشرق أوسطية مثل مصر وحلب والعراق وديار بكر وقبرص لغرض ما .. قد لا يعنينا الآن ولكن بعد كل تلك الرحلات التي يبدو أنه استمتع بها كثيراً وافته المنية إثر

ضربة شمس .. كان حريصاً على تدوين كل ما تقع عليه عيناه في تلك الرحلات التي كانت سبباً في وفاته .

لم تصدر كتاباته تلك إلا بعد قرنين من وفاته .. لم تترجم إلى لغتنا بعد لهذا سوف استثنيه من البحث فليس هو الذي ذكر الحجر ولا الذي رآه لأنه بكل بساطة لم يزر واحتنا .

2

أعدتُ تصفح كتاب "عشرة سنوات في بلاط طرابلس " على عجل .. كنتُ قد قرأته من قبل وفي مكتبتي نسخة فاخرة منه ..

هو عبارة عن مراسلات شقيقة القنصل البريطاني ريتشارد توللي في بلاط الباشا القرمانلي ما بين سنوات 1783م إلى 1793م بينها وبين شخص لم تذكر اسمه في الكتاب .

ما ميّز هذا الكتاب أنه نقل تفاصيل مهمة من حياة الباشا وعائلته من داخل القصر ومن شاهد عيان .. فقد كانت علاقتها بعائلة الباشا وطيدة ومميزة ما جعلها تتعمق في تفاصيلها الدقيقة وصراعاتها الخفية .. لكن لا أثر للحجر في كل تلك اليوميات الشيقة .

فهي لم تزر واحتنا .

في نفس الفترة التي كتبت فيها هذه المراسلات انطلقت حملة لوكاس . الإنجليزية من طرابلس متجهة إلى افريقية سنة 1789م .. لم أجد كتاباً يتحدث عنها ولا عن صاحبها .. استبعدتُ أن يكون له علاقة ببحثي فلم أكلف نفسي عناء البحث حتى لا أضيع وقتاً أنا أحوج ما أكون إليه .

3

تلاهم بعثة المايجور دانيال هاتون إلى تمبكتو سنة 1790م.. لم أجد أي معلومات حول هذه الرحلة .. غالباً أنها سارت في طريق لا يمر عبر واحتنا .. كان من بين المستثنين من بحثي .

بعد سنوات طويلة وصل ريتشاردسن إلى غدامس بعد 23 يوم من مغادرته طرابلس كان ذِلك يوم 1845/8/26م ..مكث بها ثلاثة أشهر كاملة .. غادرها بعد ذلك في طريقه إلى غات .. يعد كتابه أهم مصدر مكتوب عن غدامس في ذلك الوقت لوصفه الدقيق للناس والحياة فيها .. لكن كتابه خلا من حجرنا فوجب استبعاده من بحثي مثل من سبقوه .

4

ارسل لي صديقي أبوبكر بعض المعلومات عن بعثة الانجليزي لوكاس .. بعد ان عجزت عن ذلك .. كانت له طرقه في البحث ولتنقيب والتصنيف والترتيب والتسجيل .

في البداية تقدم إلى جمعية كانت مهتمة باكتشاف القارة الإفريقية لأغراض ربما تكون استعمارية أو توسعية أو استكشافية .. زودوه بما يحتاج من معدات بل أرسلوه ليتعلم اللغة العربية والتعرف على بعض العادات التي تتميز بها تلك المناطق التي سيمر بها قبل انطلاق رحلته .

انطلقت رحلته من لندن مروراً بفرنسا التي التقى فيها بتاجر تركي زوده برسائل توصية لتجار من معارفه بمصر .. كانت الانطلاقة الفعلية لرحلته من مصر .. عبر صحراء وادي النطرون .. وصل إلى واحة سيوة الشهيرة التي قصدها الأسكندر الأكبر أيضاً قبل قرون عديدة .. من سيوة وصل إلى أوجلة بعدها إلى زويلة وصل بنجاح إلى مرزق التي كنت عاصمة الجنوب الليبي ومقر حكامه .. بعد ذلك اتجه برحلته إلى إفريقيا .

هذا الرحالة لم يصل إلى واحتنا فهو ليس مطلبي ولا غايتي .. فهو لم يسمع ولم يرى الحجر الذي أبحث عنه .. كان ذلك في وقت مبكر أيضاً فرحلته كانت عام 1789م

سنرى غيره من الرحالة.

5

من البعثات التي مرت ببلادنا بعثة مانفريد بارك الإنجليزية كان مقصدها إلى نهر النيجر ذلك في سنة 1806م الذي كان لغزا غامضاً في أوروبا وبحاجة ماسة لأكتشافه ..

أما بعثة الثنائي اوتريخ وبارث التي كانت 1852م وبعثة فون نورمان عام 1862م كان هدفهم الوصول إلى تشاد .

إضافة إلى بعثة الآنسة الهولندية الثرية الكسندرا تينا إلى تشاد عبر مرزق التي تمت عام 1869م .. استبعدت كل هذه الرحلات من بحثي لعدم مرورها بواحتي

.. سنبحث في رحلة أخرى يا ابن مورينا .

6

رحلة رتشي - ليون قاما بها عام 1819م .. كان هدفها المعلن الوصول إلى مرزق .. يبدو أنهم سلكوا طريقاً لا يمر بهم على واحتنا لذلك استبعدتها تماماً من مجال بحثي لكن بعد أن أنفقتُ وقتاً طويلاً في قراءة رحلته .

7

بعثة الميجور جوردان لينج عام 1826م ..

كانت من أهم البعثات التي دخلت بلادنا .. ليس لما آل إليه حال الرحالة .. بل لما نتج عنها من نتائج مهمة .. من هذه النتائج أنها كانت سبباً مباشراً في إسقاط الدولة القرمانللية من الحكم وعودة البلاد لإدارة الباب العالي من جديد .

أما أهميتها الكبرى فتكمن في أن جوردان لينج قد زار غدامس بل ومكث فيها وقتاً طويلاً كافياً لمتابعة الكثير من التفاصيل الدقيقة .. كما أنه كتب يوميات كثيرة عن مشاهداته فيها وهذا هو الأهم .

كان الهدف المعلن من الرحلة هو الوصول إلى تمبكتو واكتشاف مصب نهر النيجر .. لابد أن أحدهم قد أشار عليه أن ينطلق من ليبيا .. ربما كان ذلك لأسباب تتعلق بامن الطريق أو لسببٍ ما لا نعلمه ..

ما نعلمه أنه وصل إلى ليبيا وقابل الباشا القرمانلي بل وأخبره عن رحلته ورغبته في مساعدته للوصول إلى غايته ..

وافق الباشا على المساعدة قائلا جملته الشهيرة :

- إذا أردت أن تسير في ذلك الطريق عليك أن تفتح بابه بمفتاح من الفضة .

فَهِم الرحالة أن رحلته تكلف غالياً فالطريق خطرة خاصة أن ملامحه الأوربية تثير النفور من سكان تلك المناطق الصحراوية .

أضاف الباشا :

- إن أفضل من يمكنه أن يوصلك إلى هناك هم تجار غدامس .

عُقدت الصفقة مع الحاج باباني أحد كبار تجار غدامس الذي وعد بإيصاله إلى تمبكتو وإعادته ..

توقفت رحلتهم قرابة شهر في غدامس .

توجهوا منها إلى عين صالح بالجزائر .. كانت تلك محطة مهمة في طريقهم .. مكثوا فيها فترة طويلة بعد مرض الرحالة ووصول انباء عن خطورة الطريق وحدوث اضطرابات في تمبكتو .

غادروا بعد فترة طويلة ليكملوا رحلتهم .. كان حظهم سيئًا جداً .. تآمر عليهم حراس القافلة التي ترافقهم .. فهاجمتهم غدراً إحدى القبائل الصحراوية في طريقهم إلى تمبكتو ليلاً .

كاد أن يقتل الرحالة الذي مكث فترة طويلة يعالج جراحه .

مات باباني بعد ان شفي لينج من جراحه التي تعرض لها إثر مرض ألم به قبل الوصول إلى تمبكتو .. تكفل ابن أخيه الخضر باباني بإكمال الرحلة .. وصل الرحالة إلى تمبكتو أخيراً كما وعد باباني ..

لكن ساءت الأحوال من جديد .. اندلعت فيها فتنة للسيطرة على المدينة .. منح الرحالة مهلة لمغادرة المدينة ..

في الطريق اعتدت عليه مجموعة صحراوية وقتلته وسلبته وضاعت مذكراته ..

لا نعلم إذا كان قد رأى الحجر أثناء زيارته .. كل ما وصلنا من يومياته التي حرص على إرسالها أولاً بأول مع أول قافلة تصادفه ليس فيها ذكر للحجر ..

هذا يعني أن الحجر لم يظهر بعد ..
سنبحث عن رحالة آخر .

8

وصل الألماني الشهير غيرهارد رولفس إلى بلادنا عام 1865 م .. كان ينوي أن الوصول إلى تمبكتو على ما يبدو .. تمبكتو كانت تشكل هاجساً لكل الرحالة لسبب ما .. فهي احد اهم حواضر افريقيا ربما هذا ليس كافيا لتجشم كل تلك الصعاب ..
لم تكن تلك أولى رحلاته إلى إفريقيا .. فقد سبق وكان في المغرب .. قدم نفسه كطبيب وحظى بثقة ملوك المغرب بل صار الطبيب الخاص لبعضهم .. زار الكثير من واحاتها الصحراوية .. بعدها غادر لبلاده .. لم يطل غيابه عن معشوقته الصحراء .. هذه المرة كانت انطلاقته من طرابلس .. كان ينو التغلغل في الصحراء .. وصل إلى مملكة برنو وخليج غينيا .. وصل إلى واحتنا وقضى وقتا طويلاً فيها .. تحدث عنها بأسهاب وشيء من التفصيل .. لكنه لم يتحدث عن الحجر بل تحدث عن الأرقام القديمة المستخدمة في واحتنا وعن نبع الماء وبعض العادات بل وذكر بعض الشخصيات .

كان من أهم الرحالة الذين نجحوا في الحفاظ على حياتهم إلى أن عادوا لموطنهم .. له متحف صغير في بلدته يعج بالصور المهمة عن رحلته .. كان يجيد الرسم ..

رسم العديد من الوجوه .. قد يكون من بينها أحد أسلافي .. لن اتمكن من معرفة ذلك قبل زيارة متحفه فلم ينشر في كتاب رحلته إلا القليل من تلك الرسوم .. المهم ليس من بين كل تلك الرسوم رسماً واحداً للحجر .

9

كان سبب زيارة الألماني ناختيغال لبلادنا تلبية لرغبة الرحالة غيرهارد رولفس الذي سبقه إلى المرور ببلادنا .. ذلك الرحالة طلب منه نقل شكر ملك بروسيا الألمانية على الاهتمام الذي أولاه لرحلته التي قام بها في وقت سابق ماراً بمملكة برنو ..

انطلقت رحلته من طرابلس إلى فزان ومنها إلى بعض الممالك الإفريقية القديمة مثل باقرمي وتمبكتو وبرنو .. كتب يوميات رحلته في ثلاثة مجلدات كبيرة .. لكن للأسف لم يزر هذا الرحالة واحتنا .. سلك طريقا آخر لا يمر بها في رحلته .. هذا يعني أن مطلبنا ليس عنده بل عند رحالة آخر .. يا ترى من يكون ؟

سوف أواصل بحثي .

10

الآباء البيض .

استوقفني هذا الأسم .. سبب ذلك أنه تكرر مرتين في القائمة التي أعددتها لمن زار واحتنا في تلك الفترة .. بحثتُ عنهم في محرك البحث فأفادني بالتالي :

" في عام 1868م أنشأ الكاردينال الكاثوليكي لا فيجيري جمعية علنية في الجزائرعُرِفت باسم الآباء البيض "White Fathers" وسبب تسميتهم بهذا الأسم أنهم قرروا أن يلبسوا أردية بيضاء بهدف التناغم مع البيئة الاجتماعية ، فأُطلِق عليهم هذا الاسم ، ولهم صور فوتوغرافية مبكرة نشروها في كتبهم التي كتبوها عن هذه الحركة يظهرون فيها بهذه الأردية البيضاء .. هؤلاء الآباء البيض أرسلوا وارادهم نحو واحتنا عام 1876م .. مكثوا في واحتنا ثلاثة أشهر تقريباً .. لكن يبدو أن هناك من يتربص بهم .. قتلوا في الصحراء أثناء مغادرتهم .

لكنهم أعادوا الكرة مرة أخرى فأرسلوا ثلاث راهبات إلى واحتنا .. هذه المرة أيضاً قتلن قبل وصولهن إلى غدامس .

يبدو أن شبهات كثيرة تحوم حول هذه الجمعية ..

ما يهمنا الآن من أمر هذه الجمعية أنهم لا علاقة لهم بالحجر بل بأشياء أخرى ربما تكون تبشيرية ..

سأواصل البحث في مكان آخر .

11

بعد بحثٍ مظنٍ استبعدتُ كذلك بعثة الألماني فريدريك هورنمان إلى مرزق 1801م .. سبب استبعادي له أن لمرزق طريق أخرى لا يمر بواحتنا بل يمر على مناطق أخرى مثل ترهونة وبني وليد ومنها إلى

مرزق هذا في حال كانت نقطة انطلاقه من طرابلس .. اما اذا جاءها من شرق البلاد فسيمر على واحة اوجلة ومنها يعرج جنوباً .

كذلك استبعدت من بحثي بعثة الرحالة رينيه إلى صحراء الطوارق .. بسبب عدم حصولي على معلومات كافية عن الرحلة ..

أما الرحالة الروسي ألكسندر يليسييف وهو طبيب ورسام فقد زار ليبيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر 1885م .. كل ما نشر عنه بعض رسوماته وملاحظاته في إحدى المدونات .. لم أجد كتاباً يتحدث عن رحلته بالتفصيل .. ربما سيقوم أحدهم بترجمته ذات يوم .. أما الآن فما يهمنا هو الحجر ..

12

أما الرحالة كلابرتون فكانت له رحلتان إلى إفريقيا .

الأولى كانت عام 1820م مع رفيقه أوديني الذي عين قنصلاً لبريطانيا ليشرف على أعمال التجارة وأشياء أخرى لم يصرحوا بها كعادتهم .. إصرار الإنجليز على إكمال ما فشل فيه رحّالتهم السابق المدعو ليون الذي فشل في الوصول إلى برنو إحدى أهم الممالك الإفريقية كان سبباً لإعادة المحاولة مع هذا الرحالة .

انطلق من طرابلس لكنه لم يمر بغدامس لا في رحلته تلك ولا في رحلته الثانية التي حاول أن ينهي فيها أبحاثه حول نهر النيجر بعد رفض سلطان برنو أن يمنحه التصريح للوصول إلى هناك ..

رحلته الثانية كانت بعد ست سنوات، أي عام 1826م .

دخل إفريقيا هذه المرة من البحر .. بنين كانت مدخله لإفريقيا .. وصل إلى امبرطورية سوكوتو لكنه لم يغادرها بعد أن أصيب بمرض كانت فيه نهايته .. هذا الرحالة أيضاً ليس له علاقة بما أبحث عنه ..

ضاع مني وقت طويل في التقصي .

لكن هذا لن يحبط همتي .. فكل خطوة فشل تقربني خطوات من النجاح .

انتهيت من قراءة كل ما وصلتُ إليه من مادة مكتوبة .. سواء في كتاب أو مجلة أو صفحة على مواقع الإنترنت .. لكن لا يزال الحجر بعيد المنال .. لا أثر له .. بقي أمامي ثلاث رحالة لم أتحصل على أي شيء يخبر عن رحلاتهم ولا يمكنني استبعادهم من بحثي .. أولهم رحلة الفرنسي هنري دوفرييه إلى صحراء الطوارق ويقال أنه قد زار غدامس وقد يكون هو من رأى الحجر وتحدث عنه .. كذلك بعثة الرحالة الثلاثة : دورنو – دوبيير – جونيير استغرقت رحلتهم سنتين كاملتين .. زاروا خلالها غدامس ومكثوا فيها أكثر من شهرين ولا توجد أي معلومات عنهم بحوزتي حتى الآن .. كذلك بعثة الدكتور أرفين فون باري ويبدو من اسمه أنه فرنسي كانت رحلته من غات عبر جبال الهقار وقيل لي أنه زار غدامس وبقي فيها فترة وجيزة .

علي أن أبذل مزيداً من الجهد والبحث للوصول إلى غايتي ..

لا يزال البحث جارياً .. لكن لا نتائج .. الأمر محبط ولكن لا بأس ولا يأس .. شيء من الانتظار ربما تسفر الأيام القادمة عن حجري .

وفعلا حدث ذلك ذات يوم بعد مرور سنوات من بحثي المضني هذا كدتُ أنسى أمر الحجر .

13

كان مصير معظم الرحالة الذين قدموا إلى ديارنا وتوغلوا في أعماق إفريقيا متقارباً .. إما أن تفتك بهم الأمراض أو أن يلقوا حتفهم على أيدي المتعصبين من أهل الصحراء .. قليلون جداً من أنهوا رحلاتهم وعادوا إلى ديارهم ليكملوا حياتهم في هدوء يتجرعون ذكرياتها مع أحفادهم .

الفرنسي هنري دوفيريه الوحيد الذي مات منتحراً 1892م لسبب ما أنهى حياته بنفسه .. لماذا يا ترى ؟

ولد هنري دوفيرييه عام 1840م .. كان محباً للترحال .. زار الجزائر قبل أن يزور غدامس ومنطقة الصحراء عام 1860م كما أفادني صديقي واستاذي الأعجوبة ابوبكر .... لا أشك أنه كتب مذكراته قبل أن ينهي حياته منتحراً .. بعد عدة أيام اتصل بي أستاذي ليخبرني أن هنري دوفرييه له كتاب سماه طوارق الشمال .. لكنه لم يترجم بعد إلى العربية !.

كنت أشك كثيراً في هذا المنتحر .. لابد أنه من رأى الحجر .. لا أعلم لماذا .. عليّ أن أبحث عن كتابه لأشفي غليلي وأروي عطشي للمعرفة .. قد يتطلب الأمر شرائه من مواقع بيع الكتب .. هذا في حال توفره .. فمثل هذه الكتب القديمة لا يُعاد طبعها لعدم رواجها .

توقفتُ عن البحث إلى حين الحصول على جديد ..

لم يتأخر هذا الجديد ..

سنوات قليلة اعتقد انها ثلاثة أو ربما أربع فقط .

بعدها حدث ما أثار أمر الحجر من جديد .

إنه ظهور الفيسبوك !

العصر الأزرق ...

1

ظهور الفيسبوك وغيره من وسائل التواصل الإلكترونية المختلفة غيّر الكثير من أنماط الحياة .. صارت الأمور أسهل بكثير .. ومن ناحية أخرى صارت الحياة أعقد من أن نتخلى أو نستغني عن هذه الوسائل في سائر أنحاء حياتنا اليومية ..

هذا إذا نظرنا للكوب بجزئيه الممتليء والفارغ .

في البداية كان فتحي لحساب على الشبكة الزرقاء الفيسبوك من باب الفضول والتعرف على هذا العالم الأزرق لا أكثر .. كنتُ من المتابعين لتنامي تأثير هذه الوسيلة بالذات .

لم يتعد عدد الأصدقاء في هذا الحساب المائة .. كان ذلك في البداية طبعاً .. لكن الأمر تطور لأسباب مختلفة .. أحدها سهولة الوصول للشبكة العنكبوتية بتطور ورخص سبل وطرق الحصول عليها .. أما الأمر الأهم فكان ما أحدثه الفيسبوك من تأثيرات سياسية في منطقة الشرق الأوسط ما حدى بالجميع الحرص على التواجد في الفيسبوك .. كما أنه صار الوسيلة

المفضلة للكثيرين لصنع بطولات شخصية وفتوحات وهمية .. هذا عدا أ أسباب أخرى لن أذكرها .
عن نفسي كان تأثيره علي كبيراً وخطيراً وعلامة فارقة ..
كان لدي حشد من الأصدقاء من كل مكان .. حرصتُ على أن يكون هناك رابط ما يجمعني بهم .. لم تكن الرياضة هذه المرة رابطاً أهتم بشد أواصره .. بل كان التاريخ والأدب ما حرصتُ على شد حبالها وتثبيت أركانها ... فكان لي أصدقاء من بلدان مختلفة من كل القارات تقريباً .

نشرتُ عبر حسابي العديد من المقالات والقصص والأبحاث القصيرة .. اسوة بما كنت افعله في منتداي المفضل .. هذه المرة كان اسمي الحقيقي عنواني .. ربما لم تحظ – موضوعاتي - بالاهتمام الذي حلمتُ به أو رجوته .. لكنني حصلتُ على ما يكفي من التأييد للاستمرار وعدم الوقوع في براثن الإحباط المتربص بنا في كل زاوية .

كنتُ أبحث في كل مرة عن أصدقاء أتشارك معهم الهوايات والميول والرغبات .. كان ذلك سهلاً إلى حد ما .. أسهل بكثير من الوسائل القديمة .. فزادت جرعة الإدمان .. تذكرتُ ما كان يقوله وليد صديقي عن الإدمان .. تذكرتُ كذلك رفضي الانصياع بسهولة لهذا العالم .. كنتُ أعلم أني على حق حينها .. لم يعد لدي وقت لكثير من الأشياء التي كانت ممتعة .. لعب الكرة صار على فترات متباعدة .. القراءة صارت أكثر حلاوة من على شاشة جهازي المحمول .. بدأ الكتاب الورقي يختفي من

عالمي الصغير .. استغنيت بالعالم الأزرق للفيسبوك عن باقي عوالم التواصل .

تذكرتُ الحجر ذات تصفح .. كان ذلك بعد فترة طويلة عن آخر بحث قمتُ به ولم أتوصل فيه لشيء مفيد أو إضافي .

قررتُ أن تكون الليلة مخصصة له .. بحثتُ من جديد في محركات البحث المختلفة فربما يكون هناك الجديد بشأنه .

لم يكن هناك جديد في كل تلك المحاولات .. بحثتُ مستخدماً اللغة الإنجليزية هذه المرة .

لم يكن هناك جديد .

نفس الاعتذار لكنه هذه المرة بلغة الانجليز .

بعد أن استهلكتُ معظم كوب القهوة خطرت لي فكرة البحث باللغة الفرنسية .. بعد أن تذكرتُ أن جنسية الرحالة المنتحر هنري دوفيريه فرنسية .. ترجمتُ الجملة باستخدام الخاصية التي يتيحها الجوجل لأمثالي العاجزين عن استعمال تلك اللغة .

تأخر المحرك في إعطاء النتيجة .. شككتُ في انقطاع الاتصال بعد أن طالت فترة بحثه .. تفحصتُ الجهاز .

كان متصلاً ! ..

يبدو أن المحرك يبحث عن صيغة فرنسية للاعتذار وتقديم أسفه لعجزه عن إيجاد طلبي .. هل عجز عن فهم مطلبي لسوء ترجمتي ؟

لكن لم يكن الأمر كذلك هذه المرة.

هذه المرة كانت هناك نتائج .. أعتقد أن "مذهلة" كلمة تستحق أن تطلق عليها .. في الحقيقة أنها كانت نتيجة واحدة .

كانت هناك صورة يتيمة صغيرة .. نقرتُ عليها بالمؤشر ... أخيراً ظهر شيء يخص حجر واحتي .

أسرعت بحفظها في حاسوبي ..

أعددتُ كوباً آخر من القهوة قبل أن أطلب ترجمة ما كتب عن الصورة.

2

لم تكن الصورة واضحة الملامح لصغر حجمها .. لا أعلم علة تصغيرها إلا أن صاحبها يحتكرها .. أقصد بصاحبها الذي نشرها على الشبكة بهذا السوء .. ضاعفتُ من حجمها لتحتل كامل الشاشة .. ضاعت الكثير من التفاصيل والملامح .. أعدتها لسيرتها الأولى ..

تمعنتُ فيها على تلك الحالة .

لم تكن صورة للحجر بل محاكاة لما نحت عليه .. مرسومة بيد رسام غير محترف .. كما أن الحجر لم يكن كاملاً .. يحمل على ظهره نقشاً لا كتابة .. نقشاً بارزاً .. حاولتُ محاكاة الرسم على ورقة بيضاء .. لم يكن الأمر صعباً ما رسمته مجرد خطوط وقوس وهيئة شخصين ..

اكتفيت بذلك .. كل ما ذكر على الصورة أنها صورة لحجر من غدامس رسمه الرحالة الفرنسي هنري دوفرييه .

إنـي أتقدم على ما يبدو .

3

راجعتُ ما كتبه ابن مورينا في مقاله القديم .. حاولت بناء الصورة من جديد .. أرهقني الأمر .. تركته برمته لوقت آخر .

في الليلة التالية عدتُ للحجر .. بحثتُ هذه المرة عنه في الشبكة الزرقاء .. كانت هناك نتيجة يتيمة .. ضغطت مؤشر الفأرة فوقها أحالني إلى صفحة جل اهتماماتها تاريخية على ما يبدو من مظهرها ومنشوراتها .. كانت لغتها فرنسية .. كان الإحباط يبحث له عن فسحة ليسيطر علي .. لكن هيهات .. لن أمكنه مني .

تتبعت المنشورات إلى أن وصلتُ للمنشور الذي يتحدث عن الحجر .. نقلتُ المنشور لترجمته ..

اكتشفت الكنز الذي وقعت عليه .



اليوميات...

كان المنشور مكتوباً باللغة الفرنسية التي أجهل كل شيء عنها إلا كلمة "ميرسي" التي تعني شكراً .. بالإضافة إلى أنه يتعين عليك قلب أي حرف راء يصادفك إلى حرف غين لتكون الكلمة فرنسية قحة .

نسختُ مقطَّعاً من المنشور لترجمته ..

كانت ترجمة الجوجل إلى العربية ركيكة .. فتركيب الجمل بين اللغتين مغايرٌ تماماً .. لكني مع ذلك كونتُ عدة جمل .. فهمتُ منها أن هذا المنشور جزء من يوميات ينشرها صاحب الحساب .

لاحظت تسلسل المنشورات وترقيمها ومصاحبة كل منشور برسومات أو صور .

أول إجراء قمتُ به هو نسخ كل المنشورات من الرقم واحد إلى آخر منشور .. حفظتها في ملف خاص بها حمل اسم حجر واحتي .

ترجمتُ مقطعاً آخر من المنشور الذي يحمل الرقم واحد باعتباره أول اليوميات حسب فهمي لترجمتي الركيكة .. رتبتُ جمله .. كنت بحاجة لعدة ترجمات ركيكة لمقاطع أخرى لتكتمل الصورة التي فهمتها من تلك الترجمة .

سُررتُ للاكتشاف الذي وقعتُ عليه .. راجعتُ الترجمة عدة مرات لأتبين صحة الأمر ودقته .. كانت النتيجة مشابهة لسابقتها .. إنها يوميات كتبها زائر وصل إلى واحتي ومكث فيها وقتاً طويلاً .

يحقُ لي أن أفخر باكتشافي هذا وأن أسهر طرباً وفرحاً طيلة ما تبقى من ليلتي .. وربما لعدة ليالٍ قادمة .

سأحاول ترجمتها كلها لابد أن بين طياتها ما يفيد وما لا نعلمه .

بذلت جهداً سأعتبره خارقاً من أجل الحصول على أقرب ترجمة ممكنة لهذه اليوميات .. سأقوم بنقلها كما ترجمتها وليس كما كتبها صاحبها وبعد ذلك سأبحث عن مترجم يتقن اللغة إتقان أهلها ليترجم النص لأنه يستحق ذلك .. هذا ما كشفته لي ترجمة الجوجل على الأقل .. أما الآن فسأستبعد كل ما لا يلزمني من تلك اليوميات .



هذا منشور كان يحمل الرقم "1" في سلسلة المنشورات التي قمت بنسخها .. عنونه صاحب الصفحة بعنوان :

البداية ،،،

لستُ صاحب هذه المنشورات ..

إنما أنا ناقل لها من دفتر قديم من مخلفات والدي جاك ميشيل ..

وجدته في إحدى أدراجه بعد أن آلت إليّ ترِكته ..

في البداية لم أهتم لأمره .. واستغربتُ لعدم رميّ له أو حرقه .. لسبب ما تركته في مكانه .

ذلك الصيف كنا قد عزمنا على إجراء بعض التعديلات للبيت .. لأني قررتُ أخيراً أن أتزوج .. يتطلب عالم الزواج تغير الكثير من العادات والأشياء .. فزوجتي المقبلة فتاة مودرن عصرية لا أعتقد أنها ستتقبل بيتنا القديم على شكله .. لذلك كان قرار إجراء بعض الإصلاحات والتعديلات لتتلائم مع الوضع الجديد قراراً صائباً .

عندما بدأ العمّال نقل كتب المكتبة عاد ذلك الدفتر للظهور من جديد .. للمرة الثانية لا أعلم لماذا لم أتخلص منه هذه المرة ؟..
كما أني لم أقرأه ولم أتصفحه .. كل ما فعلته أني وضعته فوق كومة من الكتب ليحل ضيفاً في القبو .

المرة الثالثة التي ظهر فيها الدفتر القديم كان بعد زواجي بأشهر قليلة .. كنتُ وحيداً في البيت أعمل على كتابة مقالي الأسبوعي للمجلة التي أعمل معها بالقطعة .. احتجتُ لمرجع من مكتبتي للتزود بمعلومة ما .. بحثتُ عنه طويلاً .. في المكتبة لم يكن له أثر .. كنتُ على يقين أن ذلك الكتاب موجود في مكتبتي .. عادت زوجتي ليزا لتجدني أعتلي مقعداً غارقاً في البحث في الأرفف العليا من المكتبة .. سألتها عن الكتاب .. قالت :

- هلا بحثت في القبو ربما يكون هناك.

هكذا انتهت رحلة بحثي في المكتبة .. نزلتُ إلى القبو المعتم .. كنتُ على يقين أن آخر عهدي بالكتاب في أرفف المكتبة ولم أضعه في القبو.

نزلتُ إلى القبو ..

كانت رائحة المكان مقرفة لبُعد عهده بالهواء والشمس .. بحثتُ في كومة الكتب القديمة عن المرجع .. وجدته بعد بحثٍ مضنٍ ..

عدتُ من رحلتي إلى القبو وبحوزتي الدفتر .

هذه المرة قررتُ أن أقرأه .

بعد تناولنا العشاء في مطعمنا المفضل .. قررتُ أن أكمل مقالتي قبل الهجوع إلى السرير .. في الحقيقة أن المقالة ضلت على حالها ليس لتلك الليلة فقط بل لليلتين تاليتين .. ما أن بدأتُ تصفح الدفتر العتيق حتى اكتشفتُ أنها مذكرات جدي ميشيل .. كتبها منذ عقود بعيدة .. لم أكن أتوقع أن يكون الدفتر بهذا القدم على الرغم من أن مظهره يوحي بذلك .. لم أتوقف عن قراءة ما كتبه جدي ميشيل لساعات طويلة .

توقفتُ تلك الليلة بعد أن تفقدتني ليزا واستغربت تأخري عن موعد نومي المعتاد .

لم أخبرها عن الدفتر .

في الليلة التالية أكملتُ قراءة المذكرات ..
لا أعلم إن كان والدي قد قرأها من قبل .. لكنه لم يحدثني كثيراً عن والده ميشيل .. كل ما نعرفه عن ذاك الجد أنه كان محباً للرحلات عاشقًا للسفر ولا يقر له قرار في مكان واحد .
كانت معظم اليوميات مؤرخة بتواريخ كتابتها ..
كان خط ميشيل جميلاً .. أذكر أن أبي تحدث عن ذلك وكان جمال خطه وجودة رسوماته أهلته للعمل في مطبعة .. بالإضافة إلى أنه كان يستثمر موهبته في الرسم برسم وجوه المارة في أيام الآحاد والعطلات في ميادين باريس الشهيرة .
بداية المذكرات كانت عادية ..
كدتُ أكثر من مرة أن أتوقف عن إكمال القراءة .. لكن لأمر ما أجهله كنتُ في كل مرة أواصل القراءة .. ربما أردتُ أن أتعرف أكثر على جدي ميشيل .. أو ربما أردتُ أن أحسم أمر هذا الدفتر نهائياً .. إما بقائه في مكتبتي وإما مغادرة بيتنا نهائياً إلى سلة القمامة حيث لا رجوع .
كما أن سبب احتفاظ أبي له كان سبباً آخر يجعلني أواصل القراءة ..
بعد عدة صفحات تغير اهتمامي .
شدني موضوع اليوميات ..
بعد فراغي من يوميات ميشيل ها أنا أنشرها على صفحتي على الفيسبوك ليطلع عليها اصدقائي لما فيها من طرافة وغرابة فلابد أن بينهم من يعشق مثل هذه المواضيع.



المنشور المرقم بالرقم 2

الخميس الأول من مايو 1930م

اليوم جاء إلى مطبعتنا أحد القادمين حديثاً من إفريقيا .. اسمه أدموند .. كان يطمح للحصول على ناشر لينشر له كتابه عن رحلته تلك .. حدثني مطولاً عن رحلته إلى الصحراء وعن مشاهدته ..

يالها من صدفة جميلة ..

كم أحسد هؤلاء المحظوظين .. الذهاب إلى إفريقيا في رحلة استكشاف حلم يستحوذ عليّ منذ زمن .. المال هو العائق الوحيد الذي يحول بيني وبين تحقيق الحلم الذي أعيش من أجل تحقيقه .. أحتاج لقليل من الحظ للحصول على دعم من إحدى الجمعيات الاستكشافية .. أو القليل من المال لتمويل رحلة خاصة ..

المشكلة أن كليهما لا يتوفران لي الآن . .

قال ذلك العائد من إفريقيا أنه سيعود في الغد ليحصل على رد صاحب مطبعتنا .. للأسف هذا النوع من الكتابات لا تغري أصحاب المطابع هذه الأيام .. فهي لا تجلب ربحاً مثل المسرحيات والروايات والقصص والشعر .. فعصر الرحلات الذهبي ولى ربما إلى غير رجعة ..

كان ذلك في القرن الماضي .. شهد ذلك القرن عشرات الرحلات الاستكشافية .. يكفي أن تبدي الرغبة في السفر إلى إفريقيا لتجد الكثير من

الداعمين لرحلتك والمشجعين لك على فكرتك .. كان ذلك العالم يعد مجهولاً لأوروبا ولابد من أن تطرق أبوابه وهذا ما حدث .. أما الآن فلا حاجة لمثل هذه الوسائل القديمة .

كنتُ أعلم أن رد صاحب المطبعة سيكون الرفض .



هذا المنشور حمل الرقم 3

الجمعة الثاني من أيار مايو 1930م

عاد ذلك المحظوظ أدموند اليوم ليسمع قرار صاحب المطبعة .. كان منهكاً .. يبدو أنه فشل في إقناعه لنشر مذكراته .. واسيته وطلبتُ له كأساً من النبيذ من المقهى المجاور .. كانت تلك الكأس ثمناً زهيداً مقابل ما في جعبته من أحاديث عن رحلته .

حدثني هذه المرة عن رحّالة آخر سبقه إلى إفريقيا .. كان أحد مرافقي الرحالة الشهير هنري دوفيريه في رحلته إلى إفريقيا .. ذلك اللقاء هو ما زاد من حماسته للسفر إلى إفريقيا .. اعتذر بأن وقته لا يسمح بسرد تلك الواقعة الآن .. غادر للبحث عن ناشر مغامر ينشر له رحلته في كتاب .

طلبتُ منه العودة مرة أخرى فربما يغير مدير المطبعة رأيه .. وعدته بمساعدته في اقناعه .

وعدني بالمحاولة مجدداً..

شكرني على كأس النبيذ وغادر محبطاً .



هذا المنشور حمل الرقم 4

الإثنين يونيو 1930م

عاد أدموند بعد أكثر من شهر من الغياب ..

كان أكثر أناقة من لقائه السابق .. أخبرني أنه جاء ليزف لي نبأ تحصله على وعدٍ بالنشر ..

يبدو أن مذكراته حظيت أخيراً باهتمام أحدهم .. طلبتُ له كأس نبيذ لنحتفل بالمناسبة سوياً .

حدثني عن هنري دوفرييه الرحالة العظيم .. سمعتُ قليلاً من أخباره .. هو أيضاً لم يلتق به بل التقى بأحد معاونيه .. ذلك اللقاء كان أحد أسباب ذهابه إلى إفريقيا .. حدثه كثيراً عن الكنوز والآثار الكثيرة التي شاهدها في رحلته رفقة ذلك الرحالة الشاب .. تواعدا على الذهاب معاً بعد أن تعذر عليه العودة مع هنري دوفرييه الذي مات منتحراً بعد عودته من رحلته تلك .

قال : إنهما ركبا أول باخرة متجهة من فرنسا إلى الجزائر .. من هناك من توجها إلى طرابلس مع قافلة تجارية .. من طرابلس بدأت رحلتهما الحقيقية إلى قلب إفريقيا .

لم يطل جلوسنا سوى دقائق حتى شرع يتحدث عن طموحاته ورغبته في العودة لإفريقيا من جديد .. كان الحماس بادياً في نظراته .. سألته ما

إذا كان سبب هذه الرغبة هو تأليف كتاب جديد .. ضحك كثيراً قبل أن يجيب :

- لو تحصلتُ على مال كافٍ لرحلتي فلن أتوانى عن العودة .. فهناك الكثير من الكنوز تستحق المغامرة .. هذه المرة لم أجلب معي سوى القليل لأني كنتُ ضمن فريق من الرحالة .. أما المرة القادمة فسوف أذهب لحسابي الشخصي .

حدثته عن حلمي في الذهاب إلى إفريقيا وأن المال هو العائق الوحيد الذي يحول بيني وبين تحقيق رغبتي .. أكد إن الأمر سهل .. اقترح علي أن أرهن بيتي وأن أشد الرحال معه .

قال : سوف تعود بأضعاف ما دفعته للبنوك .. بعدها تستطيع أن تمول رحلاتك الخاصة .

الفكرة رائعة ..

استحوذت على تفكيري طويلاً ..

كانت تنقصني جرأته وحماسته .



عدة منشورات نشرها الحفيد نقلاً عن الدفتر .. اختصرتُها لعدم أهمية محتواها لموضوع بحثي عن حجر غدامس فادرجتُ ملخصاً لما جاء فيها .

فبراير 1931م

اقترب موعد زواجي من أنجيلا .. سنذهب إلى باريس لقضاء بضعة أسابيع احتفالا بزواجنا .

آذار 1931

إنه اليوم الأخير لي في باريس .. غدا سأعود إلى بيتي .. أنجيلا كذلك اشتاقت للعودة .. انها تحن إلى بيتنا الصغير وقطتها ..



هذا المنشور حمل الرقم 8

فبراير 1932م

أدموند من جديد ..

عاد من إفريقيا .. فرحتُ كثيراً لرؤيته .. لم تطل غيبته .. بشرته صارت برونزية من تأثير شمس تلك البلدان اللافحة .. بدت علامات الثراء واضحة عليه .. تحمستُ كثيراً .

استوقفته .. كان على عجلة من أمره .. لكنه استجاب لإلحاحي .. في المقهى المجاور تناولنا كأسين .

نقلتُ له استغرابي لقصر رحلته إلى إفريقيا .. برر ذلك بأنه اكتفى بما جمعه من آثار من صحراء ليبيا .. أضاف أنه كان يخشى أن يصاب بداء الرحالة .

في ذلك اليوم سمعتُ عن هذا الداء لأول مرة .. سألته مستفسراً عنه .. ضحك كثيراً قبل أن يجيبني :

- " إنه الطمع " ..

هكذا وصفه أدموند .. كلما توغلوا في إفريقيا كلما قلت نسبة نجاتهم وعودتهم .. أضاف أن تلك الشعوب تكره البيض خاصة الأوربيين .. لا يشعرون نحونا بالأمان .. لذلك يسارعون بالتخلص منهم كمن يتخلص من كابوس مزعج .

تحسر كثيرًا على حجر رآه في بلدة صغيرة في صحراء ليبيا .. حدثه عنه رفيق هنري دوفرييه في رحلته من قبل .. واجه صعوبات جمة حتى تمكن من رؤيته .. حاول دوفرييه - من قبل - كثيرًا إغراء صاحب الحجر بالتخلي عنه مقابل بعض المال .. حاول أدموند هو بدوره الحصول عليه بشرائه أو سرقته لكنه فشل .. قال لي أن ثمنه يساوي ثروة كبيرة .. حدثني أيضاً عن تلك البلدة .. قال إنها بلدة جميلة وقديمة جداً .. بها الكثير من الآثار القديمة لكن ذلك الحجر يعتبر أفضلها وأهمها في نظر أدموند .

أكد أن هذا رأي دوفرييه ورفيقه .. ربما هناك المزيد من هذه الكنوز .. لكن يبدو أن أهلها يحسنون إخفاء كنوزهم .

هذا ما قاله أدموند في عجالة .

قبل أن يغادرني قال لي : إذا ذهبت إلى إفريقيا اختر الطريق المارة بتلك الواحة فهي الأكثر أماناً من غيرها .. لا تنس أن تبحث عن الحجر فربما تستطيع إقناع صاحبه بالتخلي عن حجره أو ربما تجده قد مات فيسهل عليك التعامل مع ورثته .

أضاف :

- مثل ذلك الحجر مكانه أحد متاحف فرنسا .
- عليك أن تسرع قبل أن يسبقك عشاق جمع التحف .

اقترحتُ عليه أن نترافق معاً من أجل الذهاب في رحلة قصيرة .. قال إنه قرر أن يعتزل الترحال ويفكر جدياً بالزواج ويستمتع بما جمعه من رحلته الأخيرة .

ربما هذا ما جعله يتحدث عن ذاك الحجر بذلك التفصيل .

ذلك الحجر كان سببا لذهابه إلى إفريقيا بعد ان حدثه عنه رفيق دوفرييه الرحالة الشهير .. ها هو يفشي لي سره بعد أن عجز عن الحصول عليه لنفسه ..

سألته عن اسم البلدة التي فيها الحجر .. قال إنها تدعى " غداميس " أضاف أنها تقع وسط صحراء قاحلة مميتة .. أكد لي أن الطريق إليها ليست صعبة .. الصعوبة لا تكمن في الطريق .. بل الصعوبة كل الصعوبة في التعامل مع أهلها .. عليك أن تتحلى بالفطنة والحيلة في التعامل معهم .

أضاف أن لتلك الواحة رائحة مميزة مختلفة .. قال كذلك إنها ساحرة .. كان يعني تلك الرائحة .. من الصعب وصفها لكن تأثيرها عليك تلمسه بمجرد أن تلفحك النسمات .. هذا كان آخر كلام أدموند عن الواحة ..

أعلم أن لكل أرض ومكان يتميز به عن الآخرين إما بهندسته أو محيطه .. هذه المرة الأولى التي أسمع عن مكان يتميز برائحته ! .

قبل أن يغادر رأيت الحجر الذي سلب لبه مرسوماً على ورقة .. هذا كل ما استطاع الحصول عليه من صاحب الحجر .. هو ومن قبله دوفرييه .

أطرف ما حدثني به أدموند في جلستنا أن الكهل صاحب الحجر حدثه عن دوفرييه وأنه التقاه منذ عقود عندما حل بالواحة .. كان في ذلك الوقت فتىً يافعاً .. وها هو أدموند يلقاه الان كهلا يستحيل خداعه .. حدثه الكهل كذلك عن رحالة آخرين جاؤوا لرؤية الحجر ..

الحجر الذي تحدث عنه أدموند يستحوذ على تفكيري ..

هناك آخرون يعلمون بأمر الحجر إذاً ..

هذا يصعب الأمر كثيراً .. لابد من الإسراع في الذهاب إلى هناك قبل وصول الآخرين .

كيف يمكن الوصول إلى إفريقيا ؟

كان الحجر سبباً لذهاب أدموند إلى هناك ..

هل سيكون سببا لذهابي أيضاً ؟

لمن سيؤول الحجر في النهاية ؟ ..

هذا هو السؤال الأهم .



كتب الحفيد منشوره هذا على صفحته :

يبدو أن جدي ميشيل فشل في الحصول على تمويل لرحلته المرتقبة .. عدة صفحات من دفتره – في مقاطع قصيرة - تتحدث عن محاولاته إقناع أكثر من جمعية استكشافية لدعم رحلته .. كل محاولاته تلك باءت بالفشل

على الرغم من جديتها .. تحدث أيضاً باقتضاب في كل مرة عن إصراره على الاستمرار في الحلم والمحاولة .

في إحدى الصفحات تحدث مطولاً عن الحجر ..

لم يعد حلمه الحصول عليه والعودة به إلى باريس كما تحدث في عدة مرات .. بل صار يخشى أن يسبقه إليه أحد .. تحدث في نصف صفحة عن خشيته أن يقع الحجر في أيدي إيطالية بحكم احتلالهم لليبيا ..

عد الجد ميشيل ذلك كارثة .

عاود الجد ميشل محاولته للحصول على دعم جزئي لحملته .. باءت هذه المحاولات كسابقاتها بالفشل .. كل الجمعيات رفضت دعمه لسبب واحد .. تلك البلاد تخضع لسلطة إيطاليا ..

الجمعيات التبشيرية رفضت تمويل رحلته لعدم تقبل أهالي تلك المناطق لنشاطهم التبشيري .

أشار ميشيل أن جمعية الآباء البيض مستعدة لدعم رحلته على أن تكون في الجزائر .. أو في أي بلاد أخرى تخضع لحكومة فرنسا .

حجره في صحراء ليبيا وليس في الجزائر .. هذا ما لا يستطيع التصريح به لهم .

صرف نظره ولم يكرر محاولته معهم وعد ذلك مضيعة للوقت حسب ما كتب في دفتره .

تحدث الجد ميشيل في صفحة لاحقة عن رغبته الملحة في الذهاب إلى إفريقيا ولو تطلب الأمر تعلم الايطالية رغم بغضه الشديد لها ولأهلها والذهاب تحت مظلة جمعية إيطالية .

المهم الوصول إلى الحجر قبل الآخرين .

الحجر يستحوذ على تفكير جدي بشكل مثير .

يبدو أن إحباطاً شديداً يحكم قبضته على حلمه .



كتب ميشيل في دفتره بتاريخ كانون الثاني 1933م

على الرغم من بغضي للإيطاليين لكني بدأت تعلم لغتهم القبيحة .. سأتحمل ذلك صاغراً .. قد أجد بغيتي مع جمعية إيطالية تدعم فكرتي تلك .. البلاد تحت سلطانهم الآن .. لابد من الوصول لهذا الحجر .. ليس الوصول إليه فقط بل إحضاره إلى فرنسا .. إذا تعذر الأمر فإحضاره إلى إيطاليا يُعدُ نصف نصر .. المهم أن يكون قريباً .. بقاؤه هناك خسارة فادحة ليس لميشيل وحده بل لفرنسا أولاً ولأوروبا كلها ثانياً .. ضيعت فرنسا حجر رشيد فلن نضيع حجر غداميس هذه المرة .

نصف نصر أفضل من خسارة كاملة .

هذا ما ختم به ميشيل حديثه .



منشورات قصيرة متتالية على صفحة الحفيد :

هذا ما كتبه ميشيل في إحدى الصفحات لكنه لم يؤرخها بتاريخ كتابتها .. في هامش الصفحة كتب :

أخيراً وصلني رد من جمعية تبشيرية ‘يطالية مغمورة .. على الرغم من غموض ردهم إلا أنه يعتبر بصيص أمل سأتشبث به .. سأستمر في تعلم تلك اللغة البغيضة .. إني أسير فيها سيراً حثيثاً حسنًا .. إنهم تكفلوا بدعمي للوصول إلى ليبيا على أن أسير وفق خطتهم وأتقيد بذلك .

اجتهدتُ في دروسي في تعلم الإيطالية .. بدأت استسيغها الآن بعد جرعة الأمل التي تجرعتها على الرغم من ضآلتها .

يبدو أن الطريق إلى حجري سيمر عبر روما .



في إحدى زياراتي إلى باريس اختلستُ قليلاً من وقتي للذهاب إلى جامعتها .. كان لابد لي من أن أطرح بعض الأسئلة التي تفيدني إجاباتها في حال ما تمكنتُ من الذهاب في رحلتي المرتقبة .. لن أجد ردوداً على أسئلتي إلا هناك .

كيف يمكنني معرفة حجر أثري قديم من حجر زائف ؟..

مثل هذه الإجابة بالتأكيد ستفيدني في الحصول على آثار حقيقية غير مزيفة .

كان محدثي متمكناً من عمله وعلمه .. يمكنك معرفة واكتشاف ذلك من آثار السنين على وجهه وبدنه وكلماته .. فقد أنهكته التجارب وأحنت ظهره الخبرات .



جاك ..

إنه ولدي البكر .. لا أستطيع أن أصف مقدار سعادتي بقدومه .. صرفتُ الكثير من مدخراتي التي جمعتها من أجل رحلتي إلى إفريقيا للاحتفال بمقدمه .. كما أن زوجتي لازمت الفراش بعد مولده ما كلفني صرف مال إضافي .

لابأس سأبدأ من جديد .. إنه يشبهني كثيراً .. في عينه توقّد وتطلع هكذا تصفه أمه .. إنه يحبو الآن .. بدأت تتضح معالم وجهه .. إنه يشبهني كثيراً ..

كم أنا سعيد بولدي جاك .



كان واضحاً أن هناك حرباً ستندلع يوماً ما .. الكل ينتظرها .. لا أحد يعرف موعدها .. الألمان يُعدّون عدتهم للانتقام لما حدث لهم في الحرب العالمية الأولى .

سأغادر إلى إيطاليا ومنها إلى ليبيا .. كان هاجسي الذي قض مضجعي هو عائلتي .. لكن زوجتي دفعتني وشجعتني على المضي قدماً في مشروعي " الحلم ".

في البداية لم تكن مهتمة بأمر ذهابي .. بل كانت تفضل بقائي إلى جوارها .. مع مرور الوقت وضعت بدورها أفكاراً لحياة جاك ومستقبله

.. العائق الوحيد الذي كنتُ أخشى أن يعرقل حلمي هو تعلقي بجاك .. أعلم أن سفري سيزيد من نار اشتياقي له .. لابأس كل ما أفعله ليس من أجلي وحدي .. حصولي على ذلك الحجر سيؤمّن لنا جميعاً ثروة تكفينا سنوات طويلة .. ربما نذهب بعدها في رحلة طويلة إلى أمريكا تلك الأرض الجديدة أرض الأحلام والمال والذهب .

تركتُ لهم ما يمكّنهم من العيش في ظروف حسنة ريثما أعود بالحجر من رحلتي .. أعلم أني سأشتاق لجاك كثيراً .. إنه الآن يستطيع السير والركض وحده .. ستعتني زوجتي بتعليمه ريثما يحين وقت دخوله للمدرسة .. تقول إنها تريد أن تجعل منه عازفاً يشار له بالبنان .. أعتقد أن فيه ميلاً للمغامرة .. في حال فشلت في الحصول على الحجر - وهذا مستبعد - سوف تكون وصيتي لجاك أن يهتم بأمره أعني الحجر .. سنترك أمر مستقبله لوقت آخر هذا ما تقوله زوجتي ..

المهم الآن هو الحصول على الحجر .



كل ما أعرفه عن الحجر هو ما وصفه لي أدموند .. قال أن دوفرييه قد رسمه في لوح .. هذا كل ما استطاع دوفرييه الحصول عليه من صاحب الحجر بعد محاولات ومساومات اكتفى حسب وصف أدموند صاحب الحجر بالابتسام في وجه دوفرييه .. فكان رسم صورة للحجر أقصى مكسب استطاع العودة به من كل تلك الرحلة .

رأيتُ الرسم الذي حاول أدموند تقليده ... لم يكن دقيقاً لأن أدموند لا يُحسن الرسم كدوفرييه .. لكنه أسهب في وصفه .. لم أر رسم دوفرييه بعد لكن أعتقد أنه لن يكون أسوأ من رسم أدموند .. يعتقد دوفرييه ويشاركه أدموند الرأي أنه نحت قبل أكثر من ثلاثة آلاف سنة أو يزيد .. لا أعلم كيف استطاعا تقريب ذلك .. لكن ليس عليّ سوى تصديقهما فهما فقط من رأيا الحجر ولا أحد يستطيع نفي ما يقولانه حتى يرى ذلك .. الطريف في الأمر أنه لم يخبرني عن أبعاد الحجر طوله وعرضه ووزنه .. لو كان بحجم حجر رشيد فهذا يعني أنها ثروة هائلة ! ..

أعني هنا ثروة بمعنييها المادي والمعنوي .

تباً لي كيف نسيت طرح مثل هذا السؤال ؟.

ربما هناك أحجار أخرى لم يرها أدموند ولا دوفرييه .. لابد من الذهاب للبحث والتنقيب .. أعلم صعوبة ذلك .. لكن لابد من المحاولة ولا ضير من المجازفة .



حدثني أدموند في ذلك اللقاء أيضاً عن صاحب الحجر بعد أن سألته عنه .. فقال نفس الرجل الذي التقى بدوفرييه عندما كان شابا يافعا على اعتاب الثلاثين من عمره .. والتقاه أدموند بعد ذلك وقد صار كهلا .. في المرة الأولى كان دوفرييه يفاوض صاحب الحجر الذي كان رفقة ابنه .. في المرة الثانية التقى أدموند بالابن الذي ورث الحجر .. كما ورث عناد ابيه .. هل سألتقي بالكهل كذلك أم بوارث جديد؟ ..

أرجو أن يكون الوارث الجديد أقل عناداً و أسهل انقياداً .



نشر الحفيد على صفحته :

وصل الجد إلى إيطاليا على ما يبدو دون أن يذكر ذلك في هذا الدفتر .. لكنه أشار إلى وصوله إلى طرابلس عبر البحر في سفينة لم يذكر اسمها و لا مكان انطلاقها .

أشعلت ألمانيا حرباً لم نكن نتوقعها .. ربما لم نكن نتوقع أن تكون بهذه الشراسة والسرعة .. اجتاحت شرق أوروبا في زمن قياسي ..لم يصمد شيء أمام جحافلهم .. إنها على مشارف فرنسا الآن حسب ما يردنا من بريد .. يقال إنها تنتقم من خسارتها في الحرب العالمية الأولى ..
هل العالم مقبل على حرب عالمية ثانية ؟..

وصلتني رسالة من أنجيلا تخبرني فيها أنهم غادروا البيت بعد دخول الألمان باريس وتوجهوا إلى الريف فرارا من بطش تلك الجيوش .. القذائف تتساقط على باريس .. جاك بخير لكنه يبكي بعد سماعه للرصاص و القذائف .
ليس جاك وحده من يفزعه صوت الرصاص ..

المشكلة أن الإيطاليين يقفون مع الألمان ضد الفرنسيين والإنجليز .. هذا ما قد يعقد مسألة وجودي في ليبيا .. لكن لا بأس ليست كل إيطاليا مع موسيليني حسب ما عايشت هنا في طرابلس .

في أول فرصة سنحت لي ذهبت لزيارة المعالم الأثرية في طرابلس .. كان يغلب على المدينة الطابع العربي .. قوس ماركوس وحده ربما ما يدل على أن الرومان كانوا هنا ذات يوم .

سنحت لي بعد شهور من وصولي فرصة زيارة مدينة لبدة ومدينة صبراتة .. كانت فرصة لا يمكن تفويتها .. أطلال مدينتين رومانيتين قديمتين .. لاتزال بعض معالمهما باقية .. استمتعت بالزيارة لكنها لم تسفر عن شيء مما جئت من أجله .



لا يزال الحفيد ينقل من دفتر جده ميشيل الكثير من الذكريات عن رحلته إلى ليبيا .. كانت ترجمة كل تلك المنشورات تأخذ مني وقتاً طويلاً لترتيب وتنسيق الجمل حتى تبدو في شكل يمكن الاستفادة منه وفهم المراد منها .. أرسلتُ من فترة بعض ما ترجمته باستخدام البرامج التي يتيحها الجوجل في هذا الشأن لصديق .. كان راضياً عن أدائي ونقلي .. لذلك قررتُ الاستمرار بنفس الوتيرة والحماسة .

عادة ما يحبطك الأصدقاء ..

لكن هذه المرة وجدت دعماً مهماً من صديقي .. طلب مني الاستمرار .. شعرت بتحسن في لغتي الفرنسية .. استعنت به في تعليمي كيفية نطق بعض الكلمات التي تتكرر كثيراً في هذه المنشورات .

تحدّث الجد مطولاً عن زيارته لمدينة لبدة وصبراتة ومشاهداته .. نقل الحفيد ذلك بالتفصيل في صفحته .. لم أنقل شيئاً من ذلك لأنه لا يمت للحجر بشيء ..

أكتفيتُ بالإشارة إلى ذلك عرضاً فقط .

يبدو أنه كان يعد كتاباً برحلته أسوة بسابقيه من الرحالة .. كما أن هذا الكتاب قد يعوض من خلاله نفقات رحلته .

هذا تفكير عملي .. سنكون أكثر المستفيدين من مثل هذه الكتابات فقط علينا أن نترجمها أولا لنستفيد منها .



نشر الحفيد على صفحته هذا المنشور الذي حمل رقم 20

لم أصل بعد إلى غداميس حيث حلمي .

سألتُ كثيراً عنها في طرابلس .. كثير ممن سألتهم سمعوا عن أهلها لكنهم لم يذهبوا إليها و لم يفكرون في ذلك .. فالصحراء صعبة في أزمنة السلم فما بالك في وقت الحروب .

لم يتجاوز ما حدثوني عنه ما أعرفه من خلال أدموند .. سمعت أن هناك كثيرين من أبناء تلك الواحة مقيمين في طرابلس ..

دلني أحد الرفاق على أحد أبناء تلك الواحة البعيدة .. التقيته مساءً في مقهى قرب ميناء المدينة .. أغلب زبائن المقهى من الصيادين والبحارة.

لأنها المرة الأولى التي أدخل فيها مقهى رواده عرب .. لم أذهب لوحدي .. ذهبتُ رفقة صديقٍ مالطي كان يتقن الحديث بلغتهم .. بل كانت تربطه باهل غداميس علاقات قديمة في التجارة ..

كان يجلس وحيداً أمامه منضدة مواجهاً للبحر .. وافق على مضض أن نشاركه جلسته .. لم أحدثه بالإيطالية بل بالفرنسية .. كان ذلك سبباً كافياً لإزالة أكوام أخرى من حذره حسب ظني لكره الأهالي للإيطاليين .. قدمني له صديقي المالطي باعتباري باحثاً وعالماً .. لم تبدو على ملامحه أي تعابير لهذه الاضافة .. واصل تأمله للبحر .. بعد مضي وقت قطع المالطي تأمله :

- صديقي يرغب في الحديث مع أحد ابناء غداميس .. لديه أسئلة يرغب في معرفة أجوبة عنها .

كان تاجراً على ما يبدو من مظهره .. كان زيه نظيفاً ومرتباً .. جلس يحتسي كوب القهوة هادئاً وحيداً .. اكتشفتُ بعدها كم كان استنتاجي مضحكاً .. فجل أهل تلك الواحة يمتهنون التجارة .. بل يعدون من أمهر التجار ليس في طرابلس فحسب بل حتى في تونس ومدن إفريقيا .. ضحكت كثيراً من فراستي ! .

غادر المالطي .. انتهت مهمته .. تركني مع الكهل الصامت ... تبادلنا أطراف الحديث في مواضيع مختلفة ..

سألته عن سبب اختياره لهذا المقهى البعيد .. فأجاب يوجد مقهى قريب من مكان سكنه لكنه يفضل المجيء إلى هذا المقهى لأن ابن أخيه من رواد ذلك المقهى .. أضاف :

- ذلك المقهى لا يطل على البحر أيضاً .
- تعشق البحر ؟
- لا .. أجلس هنا لأنه يذكرني بواحتي .

في البداية كان متحفظاً .. كان مدخلي للحديث معه عن التجارة .. حدثني عن المصاعب التي يوجهها هو وأمثاله من التجار .. قال أن بعضهم اضطر لبيع بيوتهم ومحالهم في طرابلس وعادوا إلى واحتهم البعيدة غدامس ..

- لم تعد التجارة مربحة ..

هكذا قال .. كان يتحاشى ذكر الأسباب .. لكن الأمر لا يخفى على ذي لب .. دخول إيطاليا إلى البلاد أربك التجارة .. الجميع يخوضون حرباً ضدها ويسعون لإخراجها من بلادهم .. لكن لا أحد يتحدث في ذلك خصوصاً ونحن نعد غرباء بل محسوبون على إيطاليا .

الحرب أوقفت كل شيء .. توقفت القوافل عن السير بعد سيطرة أيطاليا على كامل البلاد .. كسدت التجارة .. عم الغلاء كل شيء .. الحكومة تسيطر على كل شيء .. هذا ما لم يصرح به .. لكنه واقع أمامي أراه بأم عيني .. بواخر روما ترسو كل يوم في الميناء .. أغرقت سلعها أسواق

طرابلس .. لا مكان لتجارة القوافل بعد الآن .. الأسباب عديدة من بينها ما سلف ذكره .

سألته عن البديل عن التجارة ؟ .

فأجابني أن بني واحته جلهم عادوا إلى غداميس .. سألته ماذا يفعلون هناك بعد توقف التجارة .. أجاب سيعملون في فلاحة الأرض .. فهي وسيلتهم البديلة للعيش إلى أن تنجلي الأمور وتتضح .

مثل هذه الظروف مثالية للمساومة على الحجر بل على كل شيء .. قد يتنازل صاحب الحجر إزاء ما تمر به التجارة من عراقيل .. للمال سحره الذي لا يقاوم .. لكن عليّ أنا أيضاً أن أتدبر مالاً لأتمكن من المفاوضة به .. كلانا نمر بنفس الظروف السيئة .. ربما ظروفي أفضل بقليل من ظروفه .

في الليلة التالية التقيته من جديد .. ذهبتُ وحدي هذه المرة .. وجدته في نفس مجلسه .. يتأمل البحر .. فنجان من القهوة أمامه .

تقبل جلوسي معه برحابة صدر .. بل ابتسم وانبسطت أساريره وتخلى عن شيء من تجهمه .. خضنا في مواضيع شتى .. كان الحديث معه شيقاً ومفيداً.

تجنبتُ الحديث عن الحجر معه .. هكذا تقتضي الحكمة .. حذرني أدموند كثيراً منهم .. وصف أهالي تلك الواحة بأمرين : الدهاء والطيبة .
ضحكتُ منه حين قال ذلك .. لا أعلم كيف يجتمعان معاً في مكان واحد .. لكن أدموند أصرّ على قوله ولم يتراجع .. لن أستغرب صحة ما قاله

أدموند .. خصوصاً بعد فشل أكثر من شخص في الحصول على حجر ربما لا يعي صاحبه قيمته العلمية والتاريخية والمادية .. أكد أدموند أن هذا ليس انطباعه وحده .. بل انطباع سجله أكثر من رحّالة وصلوا إلى تلك الواحة .

لكن لا يبدو على مظهر محدثي مكراً ولا دهاءً .. بل كل ما يمكن قراءته على سحنته طيبة مفرطة وسذاجة .. على العموم لا أعلم سبب وصف أدموند وغيره لهم بذلك الوصف !.. يبدو أن لفشله في الحصول على مبتغاه منهم سبباً في نعته لهم بذلك .. لكن لن يضرني شيء العمل بوصيته .. فمن الدهاء أن تبدو للآخرين عكس ما أنت عليه .

كان يتقن الحديث بالفرنسية بشكل جيد .. لم أسأله كيف تعلمها ولا أين .. لكني حدثته عن رغبتي في تعلم العربية .. ابتسم لأول مرة ابتسامة كاملة .. سألني عن سبب رغبتي تلك .. أجبته أن ذلك قد يساعدني في أبحاثي التي أنوي إجرائها .. لا أعلم إذا كان قد صدق قولي .. لكنه أبدى استعداده لمساعدتي .

التقينا بعدها عدة مرات متفرقة ..

بعدها انقطع عن الحضور للمقهى ..

خشيتُ أن يكون قد غادر إلى واحته .



منشور حمل الرقم 21 على صفحة الحديد

الفراغ قاتل .

في طرابلس لا عمل لنا .. لا أحد من أهالي البلاد يرغب في مخالطتنا ولا حيى الاقتراب منا .. يحدث ذلك بشكل متقطع وبحذر من الأهالي .. أشار أحد الرفاق أنه لم يطرق باب جمعيتنا أحد من أهالي البلد منذ أكثر من عشر سنوات على وصولهم لطرابلس .. على الرغم من الخدمات والاغراءات التي نعرضها .. مثل التطبيب والطعام المجاني والتعليم .

وصلتنا أنباء عن قصف الالمان لمدينة لندن .. لقد اتسعت رقعة الحرب إذا .. حتى في آسيا هناك حرب .. لابد أنها امتداد للحرب الأوروبية .. العالم كله مشغول بالحروب والدماء والدمار ..

ترى ما هي أخبار أنجيلا وجاك ؟



افتقدته ..

أكد صاحب المقهى عن انقطاعه منذ عدة ليالٍ .. لجئت لصديقي المالطي للسؤال عن صديقه الغدامسي .

هو أيضاً لم يكن يعلم عنه شيئاً .. لكنه أشار لي بالسؤال عنه في مكان تجمع أهل تلك الواحة او المقهى القريب من سكنهم .. ذهبتُ إلى المقهى الذي أشار به فسألتُ النادل إن كان من بين رواد مقهاه أحد من أهالي "غدامس" ؟..

لم يكن تلك الليلة أحد منهم حاضراً .. سألته عن مكان سكنهم فدلني .. قال أن اسمه "الفنيدقة" .



منشور حمل الرقم 22 على صفحة الحفيد

ذهبتُ إلى الفنيدقة حيث يقيمون .. كان ذلك بعد صلاة المسلمين لصلاتهم الأخيرة .. طرقتُ الباب .. بعد لحظات انفرجت ظلفته عن سحنة شاب .. أعتقد أن علامات الانزعاج هي التي ارتسمت على سحنته .. لم يقل شيئاً .. انتظر مني أن أفصح عن سبب طرقي للباب على ما يبدو .. أو ربما أخرسته المفاجأة أو أنه لا يحسن الحديث إلا بلغته وهذا الأقرب .

سألتُ عن صديقي التاجر بلغتي العربية الركيكة التي قطعتُ شوطاً طيباً في تعلمها .. تبادل حديثاً قصيراً مع آخرين بلغة لم أفهمها ولم أتبينها .. بعد دقيقة انفرج الباب ليسمح لي بالدخول .. كانوا مجموعة أشخاص من مختلف الأعمار .. توزعوا على كامل حوش البيت .. رائحة وجبة لذيذة يتم تحضيرها في مكان ما .. أحدهم تكلم معي بفرنسية ركيكة .. لكنها صالحة للتفاهم :

- ليس هنا من تبحث عنه أنه يسكن في داره .. هذا المكان يسكنه المسافرون والعزاب .. أما الذي تسأل عنه فله بيت وزوجة وأولاد .

- انتظرته في مقهى باب بحر لكنه غاب من أيام فها أنا أسأل عنه أهل واحته فربما يعلمون من أمره ما أجهله .. خشيتُ أن يكون مريضاً .

- لم يمنعه المرض عن الحضور .. بل مغادرته لطرابلس السبب .
- لم يخبرني عن نيته المغادرة .

لم يرد محدثي .. ربما حياءً أو لضعف في لغته .. لكني قرأتُ في أنظار رفاقه ما جال بذهني .. علاقتي القصيرة به لا تكفي لتجشم كل هذا العناء من أجل السؤال عنه .. لكني كنتُ أخشى أن أفقد وسيلتي التي ربما أستعين بها لاحقاً في مهمتي .

يبدو أن الطعام بات جاهزاً .. قبلتُ دعوتهم للعشاء .. كانت تلك فرصة أخرى لم أفوتها لتعميق علاقتي بهؤلاء القوم .. كانت وجبة لذيذة نسيتُ أن أسجل اسمها .. لكني لن أنسى طعمها .

تحدثنا بعد العشاء كثيراً .. كانوا شباباً طموحين .. بعضهم يعمل في حرف مختلفة بعد توقف التجارة .. بعضهم لا يزال يقاوم ويحاول الصمود في عالم التجارة .. البعض الآخر سيتجه قريباً إلى تونس من أجل البحث عن فرص أفضل للعمل .. واحد فقط منهم تحدث عن العودة إلى غداميس .. استغربتُ أن بعضهم يجيد التحدث بالإيطالية .. لا أعلم كيف تعلموها .

حدثتهم عن رغبتي في زيارة واحتهم بعدما سمعته عنها من السياح الإيطاليين الذين زاروها .. في تلك الليلة اكتشفتُ أن تلك الواحة تتحدث لغة أخرى غير العربية التي قطعتُ شوطاً طيباً في تعلمها .. بدأتُ أقتنع بصحة ما قاله عنهم أدموند .

كيف يمكنك التفاوض عن الحجر بتلك اللغة المجهولة ؟

أعتقد أن هذا أحد أسباب فشل محاولات دوفريييه وأدموند وربما آخرين للحصول على الحجر .



منشور جديد على صفحة الحفيد حمل الرقم 24

كتب الجد في دفتره :

في الليلة الموالية التقيتُ أحدهم في مقهى أربع عرصات بعيداً عن ضجيج البحارة في مقهى باب بحر .. كانت ملامحه قريبة من ملامح صاحبي الذي هجر مقهى باب بحر لسببٍ مجهول لي حتى ذلك الحين .. تلك الليلة وقفتُ على سبب هجره للمقهى .

سألتُ محدثي عن أخبار عمه .. كان يعتريه حرجٌ واضح .. قال في إيطالية واضحة أن عمه تعمّد هجر مقهى باب بحر .

سألته عن السبب فأجاب بدرجة أقل من الحرج أن سبب ذلك هو أنا !

سألته مستغرباً إن كان قد بدر مني ما سبّب ذلك الهجر .. فأجاب :

- يكفي أن تكون فرنسياً ليهجر المقهى .

لا أعلم كيف علم أني فرنسي ولست إيطالياً أو يونانياً أو مالطياً فقد تحدثتُ معه بالفرنسية لمرة واحدة فقط وباقي لقاءاتنا استخدمتُ الإيطالية لإتقانه لها أكثر من نظيرتها الفرنسية .. لكني لم أسأله عن كيفية معرفته لسر حرصتُ على كتمه حتى على أقرب الأصدقاء .. فتاجر خبير مثله لديه عشرات الوسائل ليعرف ذلك وربما لم يستعمل منها إلا وسيلة واحدة فقط .

أضاف بشيء من الحرج عن سؤالي له : ما الفرق في كوني فرنسي أو إيطالي أو ألماني أو حتى مالطياً .

- لذلك سبب قديم جداً .. ربما فضل هجر مقهاه المفضل على أن يبوح به .. فرنسا كانت سبباً في مأساة حلت، ليس بعائلته وحده بل بواحتنا كلها .. لذلك أنصحك بعدم البحث والسؤال عنه .. حتى لو صادف ولقيته في الطريق فتجاهله .

كان واضحاً أن هناك أمراً عظيماً أجهله ولم أكن أنا سبباً فيه هذا ما أنا متأكدٌ وعلى يقينٍ منه .. أجابني بشيء من الحرج :

- حدث ذلك منذ سنوات طويلة .. لا أعلم إن كان وقتك يتسع لسماع تلك القصة ؟.

كان جوابي له أن وقتي يتسع ويفيض .. فقال :

- كان وقتها شاباً في مثل عمري تقريباً .. دخول فرنسا في حرب مع الباب العالي من أجل السيطرة على الجزائر لم يشكل في بداية الأمر أي تأثير ملموس على تجارة القوافل .. لكن مع الوقت واستقرار الوضع لفرنسا في الجزائر تغير الأمر .. كانت أسواق الجزائر خصوصاً عين صالح وتوات من أهم الأماكن التي تصلها قوافل تجارة غداميس .. بدأت المضايقات من قبل الفرنسيس لتجارة غداميس من أجل تغيير مسار القوافل عن طرقها السابقة .. رغبة منها بمرورها عبر أراضي الجزائر بدل أن تمر عبر أراضي تونس أو طرابلس للوصول إلى أسواق الشمال .. كانت النية مبيتة للسيطرة على هذه التجارة التي كانت مكاسبها كبيرة

.. لم يكن ذلك بالأمر الجديد على واحتنا .. فطوال تاريخها تعرضت لمثل هذه الضغوط بل وصلت حسب روايات أهلنا المتواترة إلى شن حملات حربية كبيرة للسيطرة عليها .. فالسيطرة عليها يعني السيطرة على أهم باب يفضي إلى إفريقيا .. كانت رغبة فرنسا واضحة جلية .. لكن تجار الواحة لم يستسلموا رغم الظروف الصعبة .. لم تخفِ فرنسا رغبتها الملحة في ضم واحتنا لسلطانها لا أعلم سبب عدم قيامهم بحملة عسكرية .. ربما لأسباب يعلمونها هم وحدهم لكن لم يكن خافياً على أحد في واحتنا تلك الاطماع .. ضمها واحتنا لسلطانها يعني سيطرتها التامة على تجارة القوافل .

أذكر أن أدموند تحدث عن هذا في إحدى المرات .. واصل محدثي قائلاً :

- لم يرضخ تجار الواحة ولا مجلس أعيانها "توفرضا" للضغوط .. رغم المصاعب .. لكنها توقفت عن الذهاب إلى توات وعين صالح .. سلكت طريقاً أخرى للوصول إلى غات وأغاديس وزندر وكانو وتمبكتو وغيرها من أسواق الجنوب ..

كان هناك شيء ما يدبر في الخفاء .. لتركيع التجار وإجبارهم على تنفيذ رغبة فرنسا .

أضاف :

- الحرب كانت سبباً آخر لتوقف القوافل .. مرت سنوات لم تخرج قافلة واحدة من واحتنا .. قرر التجار المغامرة والخروج في قافلة كبيرة

لإنعاش الأسواق .. كان لابد من التحرك فالركود في الصحراء يعني الموت والفناء .. استعدت القافلة للخروج .. اشترك فيها جميع التجار كل حسب قدرته وماله .. كان جدي والد صديقك بين المشاركين .. بل كان من أكبر المساهمين .. لم يكتف بذلك بل خرج مع القافلة المتوجهة لإفريقيا بنفسه .. بقي والدي وعمي في غداميس .. لم يرافقا والدهما فقد تزوجا قبل خروج القافلة بأسابيع قليلة .. لولا ذلك لكانا من بين رجال القافلة .

يقال أن القافلة كانت كبيرة .. تجاوز عدد جمالها عدة آلاف .. كان أمل الواحة كبيراً في نجاح هذه الرحلة بالذات .. كان على القافلة أن تسير في أطراف الصحراء الجزائرية لتدخل إلى بلاد السودان من هناك .. على الرغم من بُعد ذلك الطريق لكن قائد القافلة فضل السير فيه على أن يمر بأسواق توات وعين صالح وغيرها داخل الصحراء الجزائرية .

مع كل تلك الاحتياطات كان هناك من يتربص بالقافلة وينتظر هذه الفرصة ويعد لها العدة .. اعترضت عصابة كبيرة من قطاع الطرق سبيل القافلة .. واجهها قائد القافلة بشجاعة وبسالة .. رفض الاستسلام والانصياع لمطالب قطاع الطرق .. طالت المفاوضات بين الجانبين .. لكنها وصلت لطريقٍ مسدود .. خاضوا ضدهم حرباً ضروساً .. نُهبت القافلة كلها .. ضاعت أموال الناس وأرزاقهم وآمالهم وأحلامهم .. ليس هذا فحسب بل قُتل معظم من كان فيها من الرجال غدراً .. كان جدي من بين من قضى نحبه في تلك المعركة .

وصلت أنباء الكارثة إلى الواحة .. لم تكن خسارة الأموال بأشد وقعاً على الأنفس من فقد الرجال غدراً .. لم تخرج قافلة بعدها من واحتنا أبداً.. كانت تلك آخر عهدنا بتجارة القوافل .. لم يعد في حوزة التجار مايمكن المغامرة به من جديد .. ليس جبناً أو خوفاً من المغامرة .. بل لعدم وجود مالا للمغامرة .. فالتاجر والمغامرة لا يفترقان إلا حين يغيب رفيقهم الثالث وهو الأمل .. لا أمل بلا مال .. المال هو عصب كل شيء .. كما أن الماء وسيلة لحياة الكائنات فالمال السبيل الوحيد للتاجر .. به يغامر ومن أجله يقامر .. تلك القافلة قضت على الإثنين بضربة واحدة .

توقفت الحياة في واحتنا تماماً لولا قوة إيمان أهلها .

سألته عن علاقة فرنسا بما حل بقافلتهم .. كان سؤالي منطقياً .

أجابني الشاب بهدوءٍ ورزانة :

- وحدها المستفيدة من تلك الغارة .

- هذا لا يعني أنها المسؤولة .

- كان تجار واحتى متأكدين من أن أصابع فرنسا من حاكتها وبنادقها من نفذتها لكن بأيدٍ أخرى مأجورة .

أضاف بعد أن أخرسني جوابه :

- هذا عدا أنه وصلت أنباء تؤكد ذلك وترقى به لمراتب اليقين .. هذا ما جعل عمي يهجر واحتنا بعد أن فقد أباه وكل ما يملك من مال .. إنه يحاول أن يبتعد عن كل ما يذكره بتلك الكارثة .. لم يعد لواحتنا مذ خرج منها إلا مرات قليلة متباعدة .

توقفتُ عن محاولة التواصل مع عمه .. أخبرتُ الشاب عن نيتي التوقف عن ارتياد مقهى باب بحر حتى يتسنى لعمه العودة إليه ما دمتُ أنا سبب انقطاعه عنه .. رحّب الشاب بالفكرة وشكرني عليها كثيراً كان الحرج بادٍ على ملامحه .

سألته عن لغته الإيطالية كيف تعلمها .. ذكر لي أنه كان تلميذاً في المدرسة الايطالية التي افتتحتها إيطاليا في واحته .

بدأتُ فعلاً أرتاد مقهى أربع عرصات .. كان أكثر هدوءً من المقهى الآخر .. فنوع مرتاديه يختلف كثيراً .. فمعظم رواده من الصنايعية وصغار التجار والباعة ..



لايزال الشاب ينشر مذكرات جده مصحوبة بصور أو رسومات .. ليس من بينها أي صورة أو رسم لجده في طرابلس أو ليبيا .. ربما لم يتمكن الجد من تصوير أو رسم مشاهد من رحلته كما اعتاد الرحالة أن يفعلوا .. أو ربما حفيده لم يأبه لمثل هذا الأمر أو ربما تعمد عدم نشر تلك الصور والرسومات تاركاً ذلك لمناسبة أخرى كنشرها في كتاب مثلاً .. فكل الصور المصاحبة لمنشورات جده هي عبارة عن صور قديمة ربما تكون في باريس أو فرنسا أو أي مكان آخر .. فهو لم يبين ذلك وهي مجهولة لي على كل حال .. كما أني لم أهتم لأمر البحث عن هويتها ..

ما يعنيني كان النص المنشور وترجمته .. كما أني قمتُ بحفظ كل المنشورات بصورها المصاحبة .

هذه المرة ظهرت صورة باللونين الأبيض والأسود لأزقة المدينة القديمة بطرابلس .. لا أعلم تاريخ التقاطها ولم يأبه الحفيد بالإشارة لذلك كما أنه لم يشر لمصدر الصورة .



يقول المنشور الذي حمل رقم 25:

انقطعتُ عن مقهى باب بحر كما وعدتُ الشاب من قبل .. لا أعلم إن كان عمه قد عاد ليرتاده أم واصل هجره .. لم يعد الأمر مهماً الآن .. فضلتُ ارتياد مقهى أربع عرصات .. فهو أقل ضجيجاً وأفضل خدمة .. لم يكن الشاب الغدامسي مداوماً على الحضور كل ليلة للمقهى .. تبادلنا تحايا من بعيد أكثر من مرة .. لم يكن يأتي وحده .. دائماً كان برفقة صديق أو أكثر .. كان يحرص على أن لا يكون وحده في المقهى هذا ما شعرتُ به ..

كنتُ أحتسي مشروبي وقهوتي هناك وأستمع لبعض ما يقدمونه من موسيقى في جهاز جرامافون .. لم أكن أفهم ما يغنونه لكن ايقاعاتهم مريحة للاعصاب .. يبدو أن ذائقتي بدأت تتأثر بأجواء هذا البلد .

لا تزال الحرب مشتعلة في أوروبا .. هتلر يجتاح كل شيء .. طائراته تقصف لندن كل يوم .. إيطاليا انقسمت بدورها كما انقسمت فرنسا بين مؤيد وداعم لهتلر وبين معارض ومحارب له .

وصلتني رسالة من أنجيلا تخبرني فيها أنها غادرت إلى الحدود السويسرية رفقة قافلة من الفارين من هول الحرب .. هناك الوضع أكثر أمناً من فرنسا التي سيطر عليها هتلر وجنوده .. قالت أن الفيلق الإفريقي في الجزائر وحده الباقي لفرنسا لخوض حرب التحرير .

أفكر في الانضمام لهذا الفيلق ..

رسالة أنجيلا زرعت الاطمئنان في نفسي بعد أن فكرتُ أكثر من مرة بالعودة للاطمئنان عليهم وأن أكون بجوارهم .



منشور رقم 26 :

كانت الحكومة الإيطالية تنظم رحلات سياحية لمستوطنيها المقيمين هنا في طرابلس أو القادمين من ايطاليا أو حتى الأجانب المقيمين تحت رعاية حكومة إيطاليا .. من بين الأماكن التي يزورونها هي غدامس ومدينتي صبراتة ولبدة الاثريتين المليئتين بالآثار الرومانية القديمة .. كان ذلك قبل نشوب الحرب .. تتوقف الأشياء الجميلة بمجرد أن تفتح البنادق فوهاتها .

سمعتُ من أحد القادمين من غداميس -التقيته صدفة ذات مرة – عن وجود فندق بخدمات ممتازة هناك في غداميس ونصحني بالزيارة في أسرع وقت .. هو لا يعلم كم أتحرق شوقاً للقيام بهذه الرحلة .. بات تفكيري محصوراً في الذهاب هناك فقط .. ربما بعد عودتي سأفكر في الانضمام للفيلق الافريقي الذي يقوده ديجول لتحريرفرنسا من هتلر وحكومته الفرنسية الموالية ..

أرجو أن تتوقف الحرب على الأقل لكي أطمئن على جاك وأنجيلا .



عرضتُ مقاطع من المنشورات التي حملتها من صفحة الفيسبوك على صديق لي يتقن اللغة الفرنسية .. يعمل كمترجم في إحدى الشركات النفطية وأعتقد أن له إلماماً بالأدب الفرنسي إلى جانب عمله في الترجمة .

قال لي : لا أحد يكتب بهذه الطريقة هذه الأيام ..

زال استغرابه حين أعلمته أن المناشير كُتبت قبل أزيد من سبعة عقود تقريباً .. شجعني على المواصلة قائلا :

- أنت تبلي حسناً .

قالها بالفرنسية هذه المرة وفهمتها دون الحاجة لترجمتها .

ترجمة المناشير تأخذ مني وقتاً طويلاً .. فجهلي باللغة الفرنسية واستعانتي ببرامج الترجمة يحتاج لوقت أطول من المعتاد .. فترتيب

الجمل وإعادة صياغتها أمر يتطلب ليس جهداً فقط بل اصراراً .. كنتُ أرجو أن أصل لشيء يفيدني في بحثي عن الحجر المفقود خصوصا بعد أن ذُكر أكثر من مرة في هذه المنشورات المنقولة عن دفتر الجد ميشيل .. ضاعفتُ من جهودي .. كنتُ في بداية الأمر أنهي عملي في المنشور الواحد في ليلتين وبعضها أكثر من ذلك .. تطورتُ مع مرور الليالي .. صارت تسليتي الليلية .. من خلالها تعلمتُ الكثير من الكلمات والمصطلحات الفرنسية ربما نطقي لها ليس بكفاءة الفرنسيين لكنها ترضي غروري .. بل بتُ أستطيع تكوين بعض الجمل الصغيرة من محصولي اللغوي من خلال هذا العمل المضني والممتع .. صار المنشور يأخذ وقتاً أقل بكثير من السابق ..

الآن أنا أسير مع صاحب الصفحة منشورا بمنشور ..

في بعض الأحيان أجري بحثاً عن الحجر باللغة العربية أو الإنجليزية .. لا جديد حوله بهذه الطريقة .. لم أبحث بلغات أخرى لإحساسي بعدم جدوى ذلك .. كما إني لم أرغب في تشتيت ذهني عن منشورات الحفيد والاجتهاد في ترجمتها .



منشور رقم 27 يقول :

إلتقيته مرات معدودة بعد هجره المقهى ..

كانت إحداها تصادف مع خروج المصلين من مسجد الباشا الكبير يوم الجمعة .. كنتُ ماراً مصادفة من هناك .. كانت الشوارع خالية من المارة على عكس سائر الأيام والأوقات .. المسجد كان مكتظاً عن آخره برواده .. أثناء وصولي بقرب باب المسجد أنهى المصلون شعائر صلاتهم الأسبوعية التي يحرصون على حضورها في المساجد .. هرعوا مغادرين إلى بيوتهم .. غص بهم الشارع كله .. بالكاد تبينته في الزحام .. طوله الفارع ما ميزته به .. كان يتلفع بجردٍ[1] أبيض شديد البياض .

لا أعتقد أنه لمحني إلا إذا كان تجاهلني .

المرة الثانية كانت في سوق الترك ..

كان يقف على باب دكان منهمكاً مع صاحبه .. يبدو أنهما يعقدان صفقة ما .. يقال أن التاجر يعشق عقد الصفقات حتى وهو مفلس .. ذكرني ذلك بمثل يقول يموت الزمار وأصابعه تلاعب مزماره - **ترجمته بصعوبة بالغة** - .. غادرتُ سوق الترك حتى لا يشعر بي .

المرة الثالثة لم أعد أذكر المكان تحديداً لكنه كان في زقاق ما .. لمحته من بعيد .. لم يكن بإمكاني تفادي مواجهته ولا هو كان بإمكانه فعل ذلك .. لم يكن بالشارع زقاق فرعي يُمكّن أحدنا من تفادي صاحبه .. الرجوع إلى الخلف لم يكن مستساغاً لكيلينا على ما يبدو .. سرتُ في طريقي وسار هو كذلك في طريقه .. كان التداهل مخرجنا من هذه المواجهة التي

---

[1] – نوع من الثياب التقليدية الليبية القديمة .. يرتديه الرجال يصنع من الصوف لفصل الشتاء او من الحرير لباقي الفصول .. يلف حول كامل جسد الرجل .

أراها أنا محرجة لكلينا .. في الحقيقة لا يمكنني التكهن بمشاعره نحوي .. ألتمس له العذر أحياناً .. ربما هذا ما أشعر به تجاه الالمان أيضاً .. هم شردوا أنجيلا وجاك واحتلوا فرنسا وقصفوا باريس بالقنابل .. لا أعلم إن كان موقفي سيكون مشابهاً لموقفه حين التقي المانياً بعد انتهاء الحرب .. أنقذني مما أنا فيه نداء جاء من خلفي .. التفتُ لأتبين هوية المنادي .. كانت تلك الإلتفاتة القصيرة كافية لتفادي لقائنا وجهاً لوجه .. سار في حال سبيله وسرتُ أكمل طريقي .. كان المنادي ابن أخيه .. يبدو أني دخلتُ الزقاق الذي يقيم فيه عمه .. ذلك كان آخر لقاء لي بالكهل في طرابلس .

كم أنا مشتاق لجاك وأنجيلا .. لم يصلني بريد منهما منذ غادرا إلى الحدود السويسرية .

صليت للرب كثيرا من اجل ان يحفظهما .



منشور رقم 30 :

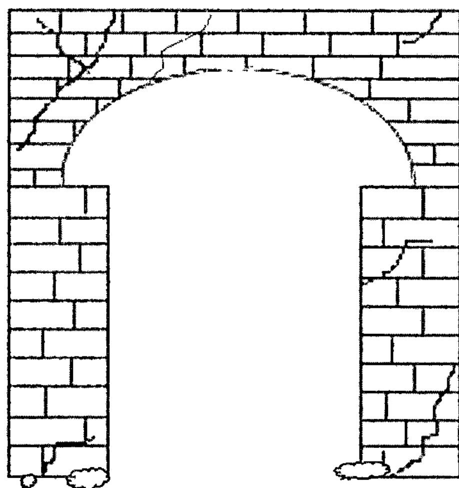
يبدو أن الجد ميشيل تحصل على أسباب تحقق له حلمه .. ستكون المنشورات القادمة عن رحلته التي حلم بها طويلا .. لم أجد في دفتره عن كيفية تدبره للمال الكافي للقيام بالرحلة .. لكنه وصل أخيراً لغايته .. إنه الآن في غدامس .

هذا ما نشره الحفيد على صفحته قبل الشروع في نقل ما في دفتر جده من أخبار رحلته .. صرتُ متحمساً جداً .. أترقب كل جديد .. دبت في نفسي جرعات مضاعفة منه بسبب هذا المنشور ..

تجاهلتُ عدة منشورات تتحدث عن رحلات قصيرة قام بها ميشيل هنا وهناك لكنه لم يتوغل بعد في الصحراء .

الصورة المصاحبة لهذا المنشور ليس لها علاقة بطرابلس ولا بغدامس ولا حتى بميشيل .. انها صورة الحفيد الذي ينشر مذكرات جده .





على ضفاف غسوف

منشور 31 :

كنتُ أتمنى أن تكون رحلتي الأولى إلى الصحراء الإفريقية صحبة قافلة من الإبل .. تسير الهوينى في طريقها .. تمر على القرى الصغيرة الكثيرة والنجوع المختلفة .. تصعد تلالاً وتهبط سفوحاً .. نتقي ضربات الشمس بلف رؤوسنا بالعمامات ونسحب دلاء الماء من الصهاريج .. نطارد بعض حيوانات الصحراء التي ستصادفنا في طريقنا .. هذا يتيح لي فرصة التعرف على الكثير من معالم هذه الصحراء .. هذا عدا أن رحلة القافلة تتيح لي فرصة زيارة جبل نفوسة القريب من طرابلس ولم أتمكن حتى الآن من الوصول إليه بسبب المخاطر الأمنية التي حذرني منها الأصدقاء .

كما أن إمكانية التنقيب على الآثار ستتاح لي بهذه الوسيلة بشكل أفضل من رحلة برية رفقة شاحنة عسكرية أو مع البريد الذي يسير رحلاته بين الفينة والأخرى .

توقف القوافل كان نهائياً لا رجعة فيه .. لم تعد تجارة القوافل مربحة ولا آمنة لأسباب عدة لا داعي لذكرها الآن .. الحكومة الايطالية مسيطرة على التجارة بل على كل شيء .. ظهور السيارات والشاحنات جعل من الإبل وسيلة نقل متعبة ومكلفة بل متخلفة .. صار التجار مجرد متسولين من الحكومة أو موظفين في أحسن الأحوال .. بعضهم عاد لزراعة الأرض أو لرعي الأغنام .. بعضهم احترف حرفاً يدوية .. بعض كبار التجار وحدهم استطاعوا أن يستمروا في السوق .. لكن هذه المرة تحت

عين الحكومة وقيودها وليس كما في السابق .. كل هذا أعتبره من سوء حظي .. الذين سبقوني لزيارة الصحراء كان حظهم أفضل بكثير من حظي بعدما آلت إليه الأمور .. لن أتحدث عن الحروب التي تندلع هنا وهناك بين الفينة والأخرى ..

العداء الذي تحدث عنه أدموند للأجانب تضاعف الآن بعد سيطرت فرنسا على جل إفريقيا وتقاسم بريطانيا وإيطاليا ما تبقى من الكعكة .. من الصعب الأن أن يأمن لك أهالي هذه الصحراء .

كنتُ مخيراً بين أن تكون رحلتي إلى غداميس عن طريق البر فوق ظهر شاحنة نقل عسكرية أو رفقة شاحنة نقل بضائع .. اتخذتُ قراري .. اقتصرت رغبتي الآن في الوصول إلى غداميس ..

الحرب لا تزال دائرة في أوروبا .. امتد أوارها إلى خارج أوروبا .. العالم كله متأثر بهذه الحرب التي استنزفت كل شيء .. ملايين الأرواح أزهقت ومثلها من الأموال صرفت واستنزفت من أجل الانتصار فيها .. بدأت الكفة تميل للحلفاء .. مشكلة فرنسا أنها تحارب نفسها أيضاً .. جزء منها يحارب مع الألمان والباقي يحارب ضدهم .. إيطاليا كذلك انقسمت على نفسها .. صديقي الشاب من غداميس هجر المقهي بدوره .. إنه يفكر في الهجرة إلى تونس ليلتحق بباقي رفاقه .. إيطاليا تسعى لتجنيد المزيد من الشباب المحلي لترسلهم إلى ساحات الحرب .. في شرق البلاد حرب على السيطرة بين الإنجليز والألمان .. المؤن شحت في الأسواق وارتفع سعر

كل شيء .. كثيرٌ من المحال التجارية قفّلت أبوابها .. يقال أن دخول أمريكا للحرب سوف ينهيها بسرعة لصالح الحلفاء ..

من أشهر لم تصلني أخبار من أنجيلا .. أشتاق كثيرًا لجاك .. لابد أنه كبر الآن .. متى نلتقي ياترى ؟

أرجو أن يكون ذلك قريباً .

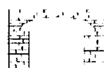


منشور رقم 32

كان قصيرا جدا هذه المرة :

صديق عزيز يعلم مدى شغفي واهتمامي بالسفر إلى غداميس تدبر لي أمر السفر بواسطة طائرة .. كان من المقرر أن تقل على متنها طبيباً وبعض المعدات إلى هناك ..

كانت فرصة رائعة لن أفوتها .



عام جديد .. حل بيننا بالأمس فقط .. لم نحتفل بمقدمه كما أعتدنا .. كان هناك ما يشغل الجميع على مثل هذا الترف .. كل ما نرجوه أن تتوقف الحرب وان تعود أوروبا لرشدها .

منشور رقم 33 :

عصر يوم 2 يناير عام 1943م

بعد رحلة استغرقت أكثر من ساعتين في عنان السماء اقتربنا من الواحة .. كنتُ أراقب بشغف كل شيء تحتي .. كتبتُ الكثير من الملاحظات حول مشاهداتي .

أخيراً اقتربتُ من غايتي .

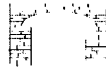
حلقت بنا الطائرة الصغيرة فوق سماء الواحة .. كانت تبدو من علياىنا نقطة خضراء محاطة ومحاصرة بصفرة الصحراء .. اقتربت الطائرة قليلاً .. اتسعت الدائرة الخضراء .. بدت طلائع النخيل السامقة الشامخة تتطاول إلى السماء برؤوسها .

ضجيج محرك الطائرة لم يعد مزعجاً .. تلاشى من سمعي .. انصب اهتمامي كله على اللوحة التي ترتسم معالمها تحتي .. اقتربت من الواحة أكثر واقتربتُ بدوري من حلمي أكثر فأكثر .

دارت الطائرة دورة فوق سماء الواحة كأن الطيار يستعرض بركابه القلائل الواحة من السماء قبل أن يهبط بنا .. كانت لوحة رائعة .. لم تتح قبل لدوفرييه ولا لأدموند ليكتبوا عنها في كتبهم .. كتابي سيتميز عنهم بوصف هذه الرحلة السماوية الرائعة .. أرجو أن لا يكون هذا فقط ما يميز رحلتي هذه عن باقي الرحلات .

أين يا ترى مكان الحجر من هذه اللوحة الساحرة ؟

بدأت تفاصيل الواحة تتضح .. عين زرقاء كبيرة تتوسطها .. محاطة ببيوت بيضاء اللون .. حوصرت بالبساتين والحقول الخضراء .. سور حجري يحيط بكل تلك المكونات .. رمال تحاول تجاوز السور للوصول إلى داخل الواحة .



هبطت الطائرة على أرض الحلم .. غداميس أخيراً .

كنتُ آخر المترجلين من على متنها الصاخب .. تسارعت دقات قلبي بسرعة أقرب لسرعة مروحة الطائرة بل ربما تجاوزتها .. لفحة من هواء بارد كانت في استقبالي .. غادرنا أرض المطار في اتجاه الفندق الوحيد في الواحة .. كانت شمس ذلك اليوم تقترب من المغيب .

قائد الحامية الإيطالية الكولونيل زاني كان في بهو الفندق في انتظارنا .. كان يرتدي بزته العسكرية في كامل أناقته .. رحب كثيراً بالطبيب الذي رافقناه في هذه الرحلة .. يبدو أن بينهما رباط صداقة قديم .

تبادلنا أطراف الحديث والمجاملات .. استغرب قائد الحامية كولونيل زاني عندما أخبرته عن حلمي بزيارة هذه الواحة دون غيرها من الأماكن في العالم .. قرأتُ في نظرته شكاً وريبة .. لكنه تمنى لي زيارة ممتعة .. تطرق حديثنا للحرب المشتعلة في كل مكان .. أكد لنا قائد الحامية أن

الحرب لن تدوم أطول مما طالت .. أضاف أن الحرب أنهكت الجميع ولابد أن تتوقف قريباً ..

غادرَنا قائد الحامية كولونيل زاني بعد أن تمنى لنا زيارة ممتعة ..

كان الفندق خالياً من الرواد .. أنا وثلاثة آخرون فقط كنا رواده .. الطبيب سيغادر ليستقر في البيت المرفق بالمستوصف الصغير بالواحة كما قال .. سيبدأ من تباشير الصباح استلام مهام عمله .



جفاني النوم في ليلتي الأولى .. استولى علي أرق لم أعهده من قبل .. بررتُ ذلك في أول الأمر أن سبب ذلك من تأثير تغير الأماكن .. هذا ما يحدث لي عادة كلما كنت في مكان لم أعهد النوم فيه من قبل .. لكن أرقي تلك الليلة كان له سبب آخر بالإضافة إلى ما سبق .. كوني في غداميس قريباً من مكان الحجر كان سبباً كافياً ليجافي النوم عيناي .

تقلبتُ على السرير ذات اليمين تارة وذات الشمال تارة دون ما فائدة .. حاولتُ استجلابه مراراً بوسائل شتى .. لكنها باءت كلها بالفشل الذريع .. على رغم حاجتي الماسة للنوم والراحة .. فينتظرني بحث طويل وشاق في قادم الأيام .

لم يكن أمامي سوى خيارٌ واحد هو مغادرة السرير نهائياً .

لبستُ ثيابي وخرجت من غرفتي .. كان السكون يعم أرجاء الفندق الخالي من زبائنه .. الحرب أوقفت سيل أفواج السياح كما أوقفت كل شيء .. الموت وحده لا يزال قادراً على المضي لحصد أراوح جديدة وبريئة في كل مكان ..

المناوب يغط في نوم عميق .. في هذه الواحة لست بحاجة إلا لشيء واحد لتنال رضا أهلها : الثقة ..

هذا ما قاله أدموند من قبل وكرره قبل قليل الكولونيل زاني لصديقه الطبيب .. هذا ما يجعل من حارس الفندق ينام ملأ جفنيه .

وقفتُ أمام باب الفندق .. أتأمل الليل البهيم .. نسمات باردة تلفح وجهي .. الصقيع يلف كل شيء .. في السماء قمر يكاد يكمل دورته .. رؤوس النخيل تتجاوب مع النسمات الباردة .. تعزف في تمايلها فحيحاً كفحيح ثعبان ضخم .. تشممت الهواء بحثاً عن الرائحة التي سحرت أدموند ومن سبقه من الرحالة .. حملت لي الأنسام الباردة رائحة رطبة .. لا أعتقد أن هذه الرائحة ما عناه أدموند .. سرتُ خطوات قليلة نحو الواحة .. لا يبعد الفندق عن أقرب مدخل للواحة سوى أمتار قليلة حسب ما قيل لي في طرابلس .. لكن مع ذلك لن أتمكن من الدخول إليها الآن فأبوابها موصدة حتى الفجر .. حتى قائد الحامية نفسه لا يجرؤ على اختراق هذا التقليد القديم هذا ما قاله أدموند ويبدو أنه على حق .

شعرتُ أن أمامي دهراً بحاله يحول بيني وبين دخول الواحة .. سرتُ خطوات أخرى لأجد نفسي أمام أعظم مشهد .. إنها تلك العين التي حام فوقها الطيار بطائرته عدة مرات قبل هبوطه على أرض الواحة .. قبل ساعات انبهرت برؤيتها من حالق .. ها أنا الآن أرى لوحة أكثر إبهاراً .. صورة القمر تتراقص على سطحها الهاديء .

دنوتُ من حرمها ..

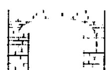
هبطتُ الدرجات القليلة التي تفصلني عن مائها .. توقعت أن تلسعني ببرودتها .. لكنها كانت حانية دافئة .. أشعر بأبخرة تتصاعد من سطحها .. من مكان ما تستمد دفئها دون مبالاة ببرودة طقس الصحراء .. غسلتُ وجهي .. شربتُ رشفات .. كان لماءها مذاق غريب في حلقي .. لم يتحدث أدموند عن هذا .. ربما لم يلحظه أو نسي أن يذكره لي .

يبدو أن كل ما في هذه الواحة سيكون له طعم مغاير ..

جلستُ على ضفتها أتأمل هذا السحر .

مر وقت لا أعلم مداه .. فقد كنتُ مأخوذاً مبهوراً مسحوراً .. هاهي الواحة تشدني بشيء آخر غير حجرها .

عدتُ بعد أن انتشيتُ بالمشهد الساحر للعين القديمة .. أخرجت دفتري لأدون أولى صفحات رحلتي .. استسلمت بعدها لجيش من الأحلام الممتعة.



ديك في مكان ما لم يتوقف عن الصياح ..

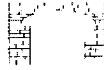
حاولت تجاهله والاستزادة من النوم الدافئ والأحلام الممتعة تغري بطلب المزيد .. توقف الديك المجهول بعد أن طار النوم من عيني كأنه موكل بإيقاظي بأمر الكونويل زاني نفسه ..

تناولتُ إفطاري .. كان المناوب من أعده .. لم تكن مهمة المناوبة الليلة إلا جزءً من مهامه الكثيرة .. تناولنا الإفطار معاً .. اقترح علي باولو - هذا كان اسمه - مرافقتي في جولتي الصباحية .. فإرشاد السائحين كانت مهمته الأصلية التي جاء من أجلها إلى هذه الواحة .. بقي فيها بعد أن توقفت أفواج السائحين عن الوصول إلى الواحة بسبب الحرب المقيتة .. قال أن شيئاً ما يشده للبقاء في هذه الواحة .. أبدى استعداده للقيام بأي عمل يبقيه فيها .. تجهزتُ للقيام بأولى جولاتي لاكتشاف المكان ..

كنتُ أفضل أن أكون وحدي .. فمهمتي تتطلب الكتمان قدر الممكن .

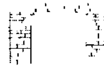
خرجتُ من الفندق .. وقفتُ أمام بابه متأملاً صباح الواحة لأول مرة .

كانت غابات النخيل تحيط بالمكان وتحاصره .. الشمس تحاول أن تبسط سطوتها على الواحة مستغلة الثغرات الضيقة بين جريد النخيل المتكاثف .



انتصب أمامي مبنى صغير في مواجهة الفندق .. من الصليب المرسوم على لوحته عرفتُ ..أنه المستوصف الخاص بالواحة ..

توجهتُ نحوه لألقي نظرة استكشافية .. كان الباب مفتوحاً على غير ما توقعت في مثل هذ الوقت المبكر .. دخلتُ لأجد الطبيب – رفيقي في الرحلة - قد باشر عمله من تباكير الصباح .. كان متحمساً مثلي لمهامه الجديدة في الواحة .. اتفقنا على اللقاء في منتصف النهار لتناول طعام الغداء معاً في الفندق .. كان أول مريض يستعد للدخول عليه عندما غادرت المستوصف .



كانت البداية من العين الخالدة نفسها ..

لازلتُ مأخوذاً بسحر المشهد الليلي لها ووقع تأثيره عليّ .. تلاشى ذلك التأثير بمجرد أن وقعت عيناي على نفس المشهد من جديد .. هذه المرة

كانت الشمس بطلته .. أضفت على المكان سحراً كاد يفوق تأثير سحر القمر .

نزلتُ الدرجات القليلة المفضية للعين .. اقتربت من الماء الأزرق الرقراق .. نقيق ضفدع كان أول صوت سمعته .. جلستُ أتأمل المشهد الساحر .. كان ماء العين ينساب إلى عدة فتحات في هدوء لا يعكر صفوه سوى نقيق ذلك الضفدع .. يذكرني هذا بقصة كانت تروى لنا أيام الطفولة البعيدة .

بعد ساعة من التأمل قمت برسم المشهد في ورقة .. أعتقد أني نجحتُ في نقله من الواقع إلى الورق .. لكن ما أحس به في ذلك الوقت كان يستحيل نقله على الورق أو حتى وصفه باللسان .

حركة الأهالي بدأت تزداد .. يبدو أن وجودي استرعى انتباههم .. لملمتُ أوراقي .. تهيئتُ لدخول الواحة من بابها الذي في مواجهتي .. كان باولو يقف أمامي وسيجارة في فمه قائلاً :

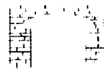
- لتستمتع بزيارة الواحة لابد لك من مرشد في زيارتك الأولى على الأقل .. بعدها يمكنك أن تقوم بذلك وحدك .. سأتبرع لك بأن أكون مرشدك دون مقابل ههههه ههههه .. تكفيني صحبتك مقابلاً لإرشادك .. كما أني أعشق القيام بهذا الدور .. مر وقت طويل على آخر فوج زارنا .

كان على حق ..

تقدمني باولو بثقة من يعلم أن عرضه لا يمكن رفضه .. منذ الوهلة الأولى تكتشف أن قرارك كان صائباً بمرافقته .. كان خير مرشد لي .. باولو يتقن عمله جيداً .. لن أحدثه عن الحجر الآن .. ربما يكون قد رآه .. لا أستبعد ذلك .. فمثله لا يفوته شيء .

حدثني بإسهاب العارفين عن العين وعن أهميتها لأهل الواحة وعمرها التقريبي الذي يصل إلى عدة آلاف من السنين كما نقل ذلك عن ألسنة أهل الواحة ..

يحاول باولو أن يعود بك إلى تلك الأحقاب البعيدة .. ينجح في ذلك بمهارة فائقة .. ربما لهذا السبب يحتفظ به الكولونيل زاني .



ملاحظة // الصورة المصاحبة لهذا المنشور كانت رسماً لعين غسوف التي تحدث عنها المنشور .. كان رسماً واضحاً ركز فيه على العين وتفرعاتها وسورها لكنه أهمل معالم باقي المكان من أشجار النخيل المحيطة و سور الواحة المواجه للزاوية التي رسم منها .. يبدو أن العين خلبت لبه عما سواها .



دخلنا إلى الواحة من باب لا يبعد سوى أمتار قليلة من العين .. سرنا في أزقة مسقوفة تمتد إلى ما لا نهاية .. تتفرع منها ذات اليمين وذات الشمال أزقة أصغر منها وأكثر عتمة .. متشابهة في كل شيء .. هذا ما لاحظته وقلته لمرشدي باولو الذي نفى التشابه وأكد على باقي ملاحظاتي .. أضاف:

- ستكتشف أن كلاً منها له خصوصيته .. فقط عليك أن تعيش هنا بعض الوقت .

تتوزع أبواب مختلفة الأحجام على جانبي الطريق .. يرتفع السقف أحياناً ليتجاوز قامة رجلين .. ينخفض بك فجأة ليجبرك على الانحناء .. تتسلل أشعة الشمس كل عدة أمتار من فتحات في أسقف الأزقة .. تمنح المشهد رهبة وهيبة بالإضافة إلى الهواء والضياء .

منذ الوهلة الأولى اكتشفتُ أن هناك شيئاً ما أجهله يميزها .. وقفتُ لبرهة في محاولة التخلص من تأثير ما قاله لي أدموند عن هذه الواحة .. علي أن اكتشف ذلك بنفسي وبطريقتي .

دون شعور مني التقطت أنفي تلك الرائحة التي تحدث عنها أدموند مطولاً .. بل وأسهب في وصفه لها .. كما أن للمكان فرادته وتميزه من حيث شكله وتصميمه وبناؤه .. فرائحته كانت كذلك .. هل هي جزء من البناء ؟ .. ربما !! ..

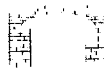
لن أستغرب ذلك .

حاولتُ البحث عن تفسير .. قطع باولو حبل أفكاري بعد أن لاحظ تشممي لرائحة المكان :

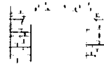
- الرائحة ... لستَ أول من يلحظها .. أول ما يلحظه الزائرون لهذه الواحة هو رائحة تنبعث من مكان ما .. مجهولة المصدر .. البعض يكتشف ذلك من أول وهلة .. البعض الآخر يكتشف ذلك بعد انتهاء جولته ومغادرته للخارج .. اتفق الجميع على أنهم لم يشتموا مثل هذه الرائحة من قبل في أي مكان آخر كانوا فيه .. اتفقوا كذلك على أنها مزيج من القدم وأشياء أخرى لم يحسنوا التعبير عنها .

- هل سألت عنها أهل هذه الواحة ؟.

- سألتهم .. أبدى كل من سألته استغرابه .. بل أكد الجميع أن للمكان رائحته كسائر الأماكن .. لكني في كل مرة أصرّ على غرابتها وفرادتها .. جربتُ الأمر مع كل الزائرين الذين رافقتهم في جولتهم داخل أزقة الواحة .. كلهم دون أي استثناء أجابوا بنفس الجواب .. رائحة مميزة لم يشتموا مثلها من قبل .. حتى أيقنتُ أنها لا تتكشف إلا لغريب .. عزوتُ الأمر للعادة .. ربما اعتياد أهالي الواحة عليها جعل منها امراً غير ملحوظ لهم .. أعتقد أنها من أسرار هذا المكان الكثيرة .



حاول أدموند كثيراً وصفها لي .. لكنه كان يفشل في كل مرة يصف لي زيارته لهذه الواحة .. الآن فقط ألتمس له العذر .. فوصف الروائح أمر يصعب على أمهر الكتّاب فما بالك بهذا الرائحة السحرية .



لم أشعر بالوقت الذي مضى في جولتنا .. كنتُ مسلوب العقل والإرادة .. أسمع كل كلمة يقولها وأسجلها في ذهني .. عيناي تراقبان كل ما تقع عليها .. أحاول أن أختصر طريقي إلى الحجر أو أن أستنبط مكان وجوده من خلال هذه الجولة الساحرة .. أتفرس في الوجوه التي نلتقيها لعل من بينها وجه صاحب الحجر .. تبادل باولو أطراف الحديث مع بعض من نلتقيهم .. تارة بلسان عربي وتارة بالإيطالية .. كان يقدمني إليهم بصفتي باحث وكاتب .. قال إن هذا سيسهل عليّ الأمر حين أتجول في الأزقة وحدي ..

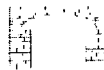
أثناء تجوالنا حرصتُ على رسم خط سيرنا .. لأتمكن من إعادة الكرة وحدي فيما بعد .. رسمتُ كذلك علامات تدل على الأماكن التي مررنا بها..

أنهى باولو جولتنا قائلاً :

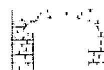
- يكفي اليوم .. عليّ أن أعود إلى الفندق فقد اقترب موعد الغداء .. كما أننا تجولنا في كافة أحياء الواحة السبعة .

عدتُ معه إلى الفندق .. أسرعت بتدوين كل ما قاله باولو خشية نسيانه وضياعه .. زودني بكمية هائلة من المعلومات المفيدة .. بدأت معالم الكتاب الذي أنوي كتابته عن رحلتي بالوضوح .. أحتاج للتواصل مع أهل البلد .. فلا أحد يوصلني للحجر إلا من يعرف مكانه .

أستطيع الآن الاعتماد على خريطتي البسيطة في السير في تلك الأزقة وحدي .. ستبدأ رحلة بحثي الحقيقية عن الحجر .



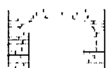
كتبتُ رسالة سريعة لأنجيلا أخبرها عن وصولي إلى غايتي : "غداميس" حيث حجري الحلم .. وعدتها أن أبذل كل ما أستطيع في سبيل الحصول عليه حتى لو تطلب الأمر الاستعانة بسلطة الكولونيل زاني نفسه.



تشرفنا اليوم بحضور الكولونيل زاني ومشاركته لنا وجبة الغداء .. تحدثنا مطولاً عن الواحة .. كان في حديثه عنها نبرة عاشق لها .. يبدو أنه وقع في براثنها من كسائر جاءها .

تحدثنا كذلك عن الحرب التي تشغل العالم .. قال إنه يشعر أنها تقترب من نهايتها .. فالنازيون والفاشيست يخسرون في كل يوم مواقع جديدة .. ويتقهقرون ويفقدون أنصاراً كانوا بالأمس من أشد المتحمسين ..

كان الثمن باهظاً .



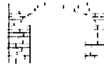
من خلال تلك الخريطة البسيطة التي رسمتها استطعتُ في الأيام التالية أن أقوم بجولات متواصلة في كل أنحاء الواحة .. تتغير معالم الخريطة كل يوم .. أضيف لها رسم واسم معلمٍ جديد .. زرتُ كل أحيائها دخلت جل أزقتها .. دخلت الكثيرمن بساتينها .. وصلتُ إلى أبعد مكان فيها .. درتُ حول بقايا سورها الذي أزاله الإيطاليون لدواعي الأمن كما قيل لي من الطرفين .. تحدثتُ مع كثير من الأهالي أحاديث مسلية .. وجدتُ منهم رحابة صدر .. لم أشعر بالعداء ربما لم يكتشفوا بعد أنني فرنسي .

ما من مرة التقيتُ بالكولونيل على مائدة الطعام إلا وسألني عن جديدي في الواحة .. قال ذات أمسية :

- كنتُ أتمنى أن لا أكون قائداً لحامية عسكرية هنا .

اشتقت لأنجيلا ولجاك كثيراً .. لم تصلني منهم أي رسالة إلى غداميس بعد .. أصلي كل ليلة من أجلهم ومن أجل فرنسا .

صَاحَبَ هذا المنشور رسم مشوش اجتمعت فيه أشياء وأسماء كثيرة .. بعد تكبير الرسم والتمحيص فيه والتدقيق في مكوناته والأسماء المنتشرة على سطحه عرفت أنه الرسم الذي أعده ميشيل للواحة .. تتبعته وحاولت أن أنقله في ورقة أكبر مترجماً ما فيها من أسماء الأماكن .. بعد الانتهاء اتضحت لي معالم واحتي واضحة جلية .



في جولاتي الكثيرة كنتُ أبحث عن الحجر .. أحاول أن أطابق ما وصفه لي أدموند بما أراه أمامي كل يوم من تفاصيل .. كبيرها وصغيرها ..

إلى الآن لم أتحدث مع أحد بشأن الحجر .. كنتُ أخشى أن أفسد كل ترتيباتي وما قاسيته من أجل الوصول إلى هذه الواحة في حال اكتشف أحدهم أمر الحجر سواء من الإيطاليين أو الأهالي ..

أخشى أن يطول الأمر .. أفضل أن يبقى الحجر هنا على أن يفوز به الإيطاليون .

لن نخسر حجر غداميس كما خسرنا حجر رشيد .

ليست لدي أي فكرة عن مكان الحجر ..

هل هو في حائط صدر ببيت ما ؟.. أم حائط مسجد؟ .. أم في أحدى مجالس القوم ؟..

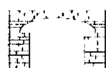
ربما يكون في خزانة ما هنا أو هناك ..

الحذر الزائد قد يفسد كل شيء كما يفسد الاستهتار كل شيء .. ما أفاد به أدموند هو أنه رأى الحجر في جدار .. لا أعلم كيف فاتني بل فات كلينا إضافة ما يفيد بموقع هذا الجدار ..

حتى الآن لم أقف على حجري .. لم أدخل مسجداً حتى الآن .. أعلم حساسية الأمر عند المسلمين .. ربما عندما يعتادون وجودي بين ظهرانيهم يصبح الأمر أقل حساسية ..

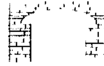
على جدران المجالس العامة للرجال ليس هناك حجري .. بعض الأحجار وجدتها هنا وهناك على حوائط المجالس .. لكنها ليست بغيتي ومطلبي .. ربما ليس لها قيمة كقيمة حجري .. أتوقع أن يكون في بيت أحدهم .. ذلك الكهل الذي وصفه أدموند بالمعاند الشرس هل لايزال حياً ؟ ..

الوقت يتسرب مني .



المانيا تتلقى ضربات موجعة .. دخول أمريكا للحرب قرب من نهايتها .
اشتقتُ لجاك الصغير وأنجيلا العزيزة ..

لم تصلني رسائل جديدة .



لم نعد نرى قائد الحامية الإيطالية الكولونيل زاني في الفندق .. مشاغل كثيرة حالت بينه وبين تواجده بيننا .. يقضي معظم وقته في القلعة المشرفة على الواحة .. لم أزرها بعد .. ربما في قابل الأيام أفعل ذلك .. حتى صديقه الطبيب لم يعد يشاركنا إلا وجبة الغداء فقط .. نتجاذب أطراف الحديث أنا وباولو أثناء العشاء بعدها أغادر للجلوس على ضفاف عين غسوف .

لم يكن قُربها من الفندق سبب مداومتي على ذلك .. بل أشعر كلما جلست هناك كمن يحملني إلى الماضي السحيق .. أحاول أن أرسم صورة لأهل هذه الواحة الذين استطاعوا قهر الصحراء .. كل يوم أكتشف عظمة ما قاموا به .. ليس البناء وحده ما برعوا في جعله وسيلتهم الناجعة لقهر الصحراء .. حكمة شيوخهم كانت حصن الأمان أيضاً لبقاء مثل هذا المكان حكراً عليهم وحدهم .

حدثني قائد الحامية زاني ذات مرة عن فشل كل الحملات التي قدمت منذ القدم للسيطرة على هذه الواحة .. اعترف هو أيضاً أن الوسيلة الوحيدة للسيطرة على أهل هذه الواحة ليست البنادق ولا الأسلحة .. لكنها وسيلة قديمة قل من يحسن استعمالها :

إنها الثقة .

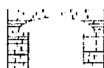
لمستُ ما تحدث عنه الكولونيل زاني واقعاً أثناء تجوالي في أزقة الواحة ومجالستي لشيوخها ورجالها وشبابها في مجالسهم المختلفة .. كان يحظى باحترام الجميع .

رسمتُ الكثير من الوجوه التي انطبعت في ذاكرتي ..

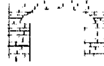
استوقفتني ملاحظة باولو عندما شاهدَ رسوماتي لوجوه مختلفة لأهل الواحة :

- لا يوجد بينها وجه مبتسم .. ما سبب ذلك ؟ هل كان الأمر محض صدفة أم كان الأمر متعمداً منك ؟.

في الحقيقة لم يكن الأمر متعمداً مني .. هذا ما انطبع في ذاكرتي .. كانت الوجوه جادة حتى في مرحها .



نشر الحفيد على صفحته العديد من رسومات لوجوه مختلفة .. تتفاوت ملامح الجد والصرامة بحسب عمر صاحب الرسم .. كلما تقدم في السن كانت ملامح وجهه أكثر جدية وصرامة .



أعود بعد جلستي على ضفاف عين غسوف إلى غرفتي بذهن صافٍ .. أدون ملاحظاتي ومشاهداتي وحواراتي مع الناس .

اقتربت أعياد الميلاد .. لا أعلم كيف سيحتفلون بهذه المناسبة هنا في هذه الظروف التي تمر بها الجبهات من تقهقر لجنود المحور وتلقيهم هزائم كبيرة .. أثناء تناول العشاء سألني باولو :

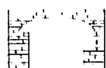
- هل وجدت ما تبحث عنه في هذه الواحة ؟

كان سؤاله مستفزاً أكثر من كونه غريباً .. كان جوابي محاولة مني لإبعاده عن هدفي الحقيقي لكن في ذات الوقت الاستعانة به في بحثي .. فقد اقتنعت بحاجتي الماسة لمُعين في مهمتي .

كان لابد من أسأله عن الحجر ولو تلميحاً .. فقد فشلت كل وسائلي للوصول إليه على الرغم من بحثي في كل مكان يمكنني الوصول إليه :

أضاف :

- كل من جاءوا إلى هذه الواحة كانوا يبحثون عن شيء ما .. هناك من يجد بغيته في أيام قليلة وهناك من تطول به المدة ولا يتمكن من الوصول .. فهل وصلت أنت إلى بغيتك ؟ .



لا يخفى على أحد أن أهم ما يميز هذه المدينة أنها طينية وليست حجرية .. فهي تعتمد في بنيانها على الطين وليونته لا على الحجر وصلابته .. لم يكن للحجر دور بارز في تشييدها إلا بما تقتضيه شروط البناء الصحيح من أساسات على سبيل المثال .. أما الطين والجبس فكانا العنصرين الأساسيين في تشييدها .. فالطين لبناء الجدران أما الجبس فله مهمتان في هذا البناء .. أولاهما تبليط الأرضيات والمصاطب والجدران .. أما ثانيهما وهي الأهم فقد استخدموه كألواح ليبدعوا على ظهرها رسوماتهم وزخارفهم .. ما فعله الآخرون في غير هذ المكان بالخشب والحجر فعلوا مثله أو أجمل منه هنا بالجبس .

تتكفل النخل بباقي المهمة المتمثلة في أخشاب السقف والأبواب بعد معالجتها بطريقتهم التي تطيل من عمرها دهوراً كما حدثني دليلي باولو.

لا ينكر إلا جاحد مدى ما بُذل في بنائها من جهد مظنٍ وفكر عميق لتصل إلى هذا المعمار الذي قهر ليس الصحراء وقساوتها فحسب ولكن كل من سولت له نفسه يوماً أن يحكم قبضته عليها .

ولكني لاحظتُ وجود بعض الأحجار المنحوتة بشكل احترافي وفني في عدة أماكن مختلفة .. متفاوتة الأزمان .. منها البدائي الموغل في القدم .. ومنها ما هو أحدث من ذلك .. هذا ما أبحث عنه أو بالأحرى هذا ما حيرني ولم أجد له تعليلاً يشفي غليلي .. أشار كثيرٌ من الرحالة إلى ذلك ولاحظته أنا بدوري بسهولة .. لم أتوصل بعد للربط بين من شيّدوا هذا الطين ومن نحت تلك الأحجار .

هل استعانوا بناحتين من أوطان أخرى ؟

أم استجلبوا هذه الأحجار من الأسواق كما استجلبوا كل ما يروق لهم؟..

لكن الاحتمال الثالث هو ما أحاول ان أجد له مبرراً وتفسيراً.. فهو الذي يروقني كثيراً .

إنهم هم من نحتوا الأحجار بنفس الأيدي التي أجادت اللعب بالطين لتخلد به هذه المدينة لأعمار مديدة .. لم تنل منها عواصف الصحراء رغم قساوتها ولا الأمطار على الرغم من جنونها ولا المتربصون على الرغم من كثرتهم وعظيم أطماعهم .

تجولتُ في كل أزقة الواحة ودروبها المتشعبة المتقاطعة .. دخلتُ كل دور العبادة فيها وأماكن التعليم .. أما البيوت فلم يكن حظي معها جيداً .. فعدد ما زرته منها لا يكفي لتكوين فكرة عما أبحث عنه .. أعلم أن بيوتهم متشابهة في تصميمها .. لكن لابد أن هناك ما يميز بيتاً عن بيت وحيّاً عن الآخر .

كانت فرصة للخوض في الحجر فلم أفوّتها .

هكذا كتب الجد تعليقا على رده على باولو .

هذا ما أجبت به باولو تلك الليلة .



كثير من كهول الواحة الذين تبادلت معهم شيئاً من الثرثرة تذكروا أدموند .. لم استغرب ذلك فهو قد كان هنا منذ وقت قريب .. ما استغربته هو أن بعضهم تحدث بإسهابٍ عن رحّالة آخرين جاءوا قبل أدموند بسنوات طويلة ..

أحدهم كان يتمتع بروح مرحة على عكس الآخرين تذكر دوفرييه أيضاً على الرغم من أن عقوداً طويلة قد مرت على زيارته .. الأغرب أنه لم يتذكر اسمه ووصفه فحسب بل أضاف بعد أن رأى استغرابي أن عمه استضافه ذات يوم في بيته .

أعتقد أن هذا الكهل سيكون وسيلتي للحجر .. فأدموند ذكر لي مساومة دوفرييه على الحجر وفشل تلك الصفقة التي لم يبذل على ما يبدو كثير جهد في عقدها .. قد يكون مع هذا الكهل من ساومه وفشل في إقناعه .. قلت له :

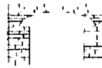
- ذكر دوفرييه في كتابه أنه دخل أحد بيوت الواحة لكنه لم يذكر اسم الطعام الذي قدمه له مضيفه .. كما أشار إلى ابن ذلك المضيف .. هل هذا الأبن لا يزال حيا ؟

ضحك قبل أن يجيب :

- ذاك ابن عمي باموحمد .
- باموهميد[1] ؟
- كان في طرابلس منذ مدة .. حملت الأخبار أنه توجه إلى تونس .. قد يكون هنا قريباً هذا ما أفادني به في آخر رسالة وصلت من بلاد تونس .

كان عليّ أن لا أتسرع فقد اقتربت كثيراً من هدفي .. عليّ أن أعرف بيت هذا العم فلابد أن الحجر هناك على جدار في بيته .. سأنتظر قدومه وأرجو أن لا يطول انتظاري .. فقد اشتقت لجاك وأنجيلا .

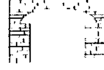
لن أضيع مزيداً من الوقت .



الصورة المصاحبة لهذا المنشور كانت لكهل ترتسم ابتسامة صغيرة على شفتيه .. يبدو أن هذا الكهل هو من كان يتحدث عنه المنشور .

---

[1] – با لفظة تسبق الاسم احتراما من الصغير للكبير وتعظيما وتبجيلا ايضا لذوي الشأن . لسان غدامس القديم .



التقيت به عدة مرات بعدها .. بل ربما كنتُ ألتقيه في اليوم الواحد عدة مرات .. إما في طريقه إلى المسجد أو في السوق أو أثناء عودته من بستانه حاملاً ما جناه من محاصيل قليلة مختلفة .

استوقفته ذات مرة .. سألته عن سبب رغبة الآخرين في زيارة هذه الواحة ؟

كنتُ أحاول أن أجد مدخلاً للحديث عن الحجر .. لم أجد غير هذا السؤال.

قال لي : أنا من يرغب في معرفة ذلك مني وليس العكس .. فلابد أن ما جعلني أقدم إلى الواحة في زمن الحرب هو نفس ما دفع الآخرين لفعل ذلك في أزمنة أقل خطورة .

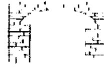
كان سؤاله التالي مفزعاً :

- ما الذي تبحثون عنه في واحتنا وتكثرون من زيارتها لأجله ؟
- التاريخ .. نبحث في تاريخ هذه الواحة .. تاريخها القديم .
- نحن أيضاً يهمنا التاريخ .. لكن طريقة بحثكم فيه مريبة .

أضاف :

- ما الذي يعنيه لكم تاريخ هذه الواحة ليحظى بكل هذا الاهتمام المريب؟

تذكرتُ ما قاله أدموند عن دهاء هؤلاء القوم وأنه يتوجب علي أن أكون حذراً في التعامل معهم خاصةً أني وصلتُ لمرحلةٍ حاسمة في بحثي .



كان علي أن أجيب على سؤاله بطريقة لا تزيد من ريبته .. أعتقد أن أهل الواحة جميعا يشاركونه في هذا الشعور نحو الغرباء .. من حقهم أن يرتابوا .. فالقوافل لم تتوقف عن جلب الرحّالة والمستكشفين وحتى المبشرين والطامعين والغامضين والمرابطين .. كان لابد أن أغير دفة الحديث قلت متسائلا :

الرائحة .. أول ما يثير الانتباه في هذه الواحة .. فهلا فسرت لي كنهها ومصدرها ؟

ابتسم كعادته قبل أن يجيب على أي سؤال :

- إنها خليط من نبع غسوف وطين الواحة .. امتزجا لعصور ودهور ليمنحا هذا العبير .. صرنا كالأسماك .. وهذه الواحة هي بحرنا الصغير .. ما أن نغادر الواحة حتى نشعر بحاجتنا الماسة لهوائها .. اعتادت صدورنا استنشاقه بل أدمنته .. نختنق بمجرد أن نبتعد قليلاً .. في بعدنا عنها نتحسس بأنوفنا روائح المدن والقرى والواحات التي ندخلها بحثاً عنها ..

سرعان ما نكتشف أنه ليس لرائحتها مثيل .. نسارع في العودة أدراجنا كل على حسب درجة اشتياقه .. في النهاية كلنا نعود .. لا أحد يستطيع أن يصبر عنها إلى الأبد .. ما أن نلتقي في دارغربتنا بقادم من الواحة حتى نسارع باحتضانه ليس شوقاً إليه بل لنتشمم منه ما علق فيه من رائحتها قبل أن تختلط بروائح المكان وقبل حتى أن يغتسل من وعثاء رحلته ..

ما أن نعود إليها حتى تغمرنا برائحتها العتيقة .. تشعرنا بعظم الجرم الذي ارتكبناه في حق أنفسنا بالبعد عنها .. أنوفنا تعودت تنفسها فلا نحس بفرادتها إلا حين نغادرها .. نحن أسرى هذه الرائحة .. ذلك المزيج السحري الذي وضع الزمان بصمته عليه .. جادت به على واحتنا فقط .

- لابد أن في الأمر صفقة .

- ربما ... لو كان الأمر صفقة فهي بالتأكيد أعظم صفقة وأنجحها وأندرها.

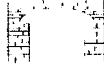
أضاف :

لست وحدك من سألني هذا السؤال .. أذكر أن دوفربيه سأل عمي نفس سؤالك هذا من قبل .. حدثنا عمي بذلك في أكثر من مناسبة .

- هل نقلت لي جواب عمك لدوفربيه أم هذا جواب كل أهل الواحة عن هذا السؤال ؟.

- ربما هو جواب كل أهل الواحة .. لكنه على لسان عمي لدوفربيه .

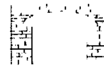
أعتقد أني نجحت في الهروب من سؤاله هذه المرة .



مع مرور الأيام صرتُ أتجول في الواحة دون الحاجة إلى خريطتي التي تطورت كثيراً .. لم أعد بحاجة لها .. صرتُ أحفظ كل شبرٍ في الواحة.

كتبتُ عدة مقالات عن الواحة أعتقد أنها تصلح للبيع للصحف والمجلات سواءً الإيطالية أو الفرنسية ..

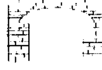
لن أعود خالي الوفاض .



كتب الحفيد منشوراً قصيراً عن جده جاء فيه :

يبدو أن ميشيل قد استهواه التاريخ كثيراً .. ربما شغله عن حجره لبعض الوقت .. فقد كتب عدة صفحات مطولة يتحدث فيها عن تاريخ تلك الواحة التي خلبت لبه .. لا أستطيع أن أجزم ما إذا كان ما جاء في تلك الصفحات من بنات أفكاره أم أنه نقلها عن صديقه من غداميس .. أجزم أنه كان يبحث عن غطاء حقيقي لرحلته أو أن مشروع الكتاب استحوذ عليه .. لو كنت مكانه ربما لفعلت فعله .. فالعودة بموضوع الكتاب خيرِ من العودة بيد فارغة من الحجر وأخرى لا شيء فيها .

استمتعت كثيراً بما نقله جدي عن تلك الواحة .



كنتُ جالساً وحدي كعادتي تلك الليلة على ضفاف نبع الواحة غسوف .. أتأمل القمر المنعكسة صورته على سطحه .. أتحسس بأنفي رائحته التي يبثها .. يبدو أني أدمنت هذه العادة .. لم يمنعني من ممارستي عادتي تلك أي مانع .. حتى شدة برودة ليل الواحة لم تكن لتمنعني .

لمحتُ خيالاً في الماء خلفي .. تجاهلته في أول الأمر معتقداً أنه خيال باولو خرج من الفندق ليطرد السأم أو ليدخن سيجارة في الهواء الطلق – يحلو له فعل ذلك أحيانا – كان أنفي هي من أنبأني أن القادم ليس باولو .. ليس لأني لم أشم رائحة سيجارته .. بل لأن أنفي اشتم رائحة أخرى لشخص آخر كان جليساً لي ذات يوم في مقهى في طرابلس مقابل البحر .. هجرني لسبب يعرفه وحده ولا ذنب لي أعرفه كان سبباً لهجره لي .

التفت لأتبين صحة حدسي من عدمه .. كان هو بشحمه ولحمه ورائحته ونظرته المتجهمة قال :

- التقينا من جديد .
- يبدو أن الأقدار تأبى إلا ذلك .
- قيل لي أنك تسأل عني .

- إذاً أنت هو يا موهميد ؟

أومأ برأسه إيجاباً قلتُ :

- كنتُ أسأل عن دوفرييه .. فقيل لي أن أحدهم استضافه في بيته فأبديت رغبتي في رؤيته .

- كان ذاك أبي رحمه الله .

انتابني إحساس بأنه يحاول أن يبرر لي سبب هجره في مقهى باب بحر بطرابلس .. قلتُ مستبقاً إياه :

- لا ذنب لي بما حصل في القافلة المنكوبة .

- أعلم ذلك .. لكني أعتبر كل الفرنسيس فعلوا ذلك .. شاركوا في الجرم بصمتهم أو بعدم أخذهم على يد الفاعل .. لم يكونوا سبباً في فقد الأب فحسب بل في قتل التجارة .. جريمتهم في قتل التجارة أفضع بكثير .. قتل الأب قد ينسى بعد سنوات .. بينما قتلهم للتجارة قتل للواحة كلها .. قتل الواحة ليس قتلاً لناسها فحسب بل قتل لألاف السنين الماضية من تاريخها ووأدٍ لمثلها قادمة .. فهل تغفر أنت لمن يدنس يديه بكل هذه الجرائم ؟

- لكني هنا إيطالي ولست فرنسياً .. ألا يغفر لي ذلك ؟

- الدماء التي تجري في عروقك فرنسية .. لا أحد يهرب من دمه حتى لو نطق ذلك بلسانه .

- صدقت .. لكن من الظلم أن تأخذني بجريرة غيري .

عادت ملامحه لسيرتها الأولى قبل أن يهجر مقهى باب بحر .. يبدو أنه غفر أو تسامح ربما إلى حين .. ربما لأني حللت في واحته .

- قيل لي أنك تدمن المكوث هنا .. الغريب أني أعشق ذلك أيضاً ..
- للمكان سحره .. في الليالي المقمرة يكون الأمر مضاعفاً أضعافاً كثيرة .. أستغرب أني لا أجد من يزاحمني في عشق المكان .
- الناس فيما يعشقون مذاهب .. كل يعشق المكان بطريقته .

مشاركتي له في عشقه ربما هو سبب غفرانه .. في لغة العشق يفترض أن يكون العكس .. لا أحد يتساهل مع من ينافسه عشقه .. هذا مذهب آخر للعشق ربما نكون نحن أول رواده .

مرت دقائق صمت اختلسناها لتأمل اللوحة البديعة ..

تعالى نقيق ضفدع .. كان لنقيقه وقع التغريد .. يبدو أنه مفتونٌ مثلنا .. أو ربما فتنة المكان صور لي ذلك .. قال :

- الغريب أن لا يفتتن كائن بهذا المكان .
- الأغرب من ذلك أن يغادره من يفتتن به .
- تلك ضريبة لابد من دفعها .. نستمتع أكثر بعد عودتنا من غربتنا أضعافاً مضاعفة من متعتنا قبل أن ننتزع منها للاغتراب بعيداً .

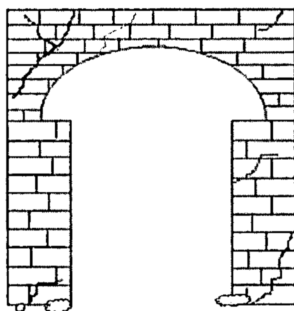
- لكنكم تكثرون السفر وتطيلون الغياب مع كل هذا العشق .

- البعد هو ما يؤجج نيران الشوق .. لا أظن انك تجهل ذلك.قد نحتاج لشيء من البعد لتأجيج النار إذا فترت أو خبت .

- ما أجهله أكثر ويثير استغرابي هو سبب هذا السحر الذي يبثه طين المكان متمثلاً في البناء ومائه متجسداً في العين ؟.. بعدها ربما ينجلي بعض الغموض .

- سبب ذلك قصة قديمة .

عاد الضفدع لتغريد نشيده .. منحه وقتاً كافياً لينشد ما راق له .. نال منه التعب فصمت .. تلفع جيداً بجرده القاتم .. ثم شرع في سرد أغرب حكاية سمعتها .



كان في سالف العصور نهرٌ جارٍ .. يشق هذه الأرض شقاً .. من أقصى جنوبها إلى أعلى شمالها .. يحمل على عاتقه الماء العذب الزلال من أدغال المجهول ليمنحه بسخاء للبحر في أقاصي الشمال .. منح الماء المكان ليس الخضرة والجمال فقط بل الحياة .

على ضفاف نهرنا عاشت أمم الأنس والطير والحيوان دهوراً .. تقاسمت خيراته .. منهم من عاش على الزرع ومنهم من فضل الضرع ومنهم من اعتاش على الصيد والقنص والافتراس .

لا تسير الحياة على وتيرة واحدة ..

هذه سنن الله في الكون .. سرعان ما يحل الملل والضجر في النفوس فتعشق التغيير .. المنغصات ليست كلها شراً .. ربما في بعضها علاج للملل .. لكن أسوأها على الإطلاق تلك التي تطرد النعمة والرخاء .. فتحل النقمة مكان النعمة .. تتبدل الأحوال .. لاتعود أبداً لسالف عهدها ..

هذا ما حدث للنهر .

لسبب ما نجهله توقف النهر بعد سنين لا يمكن حصرها من الجريان .. لم يحدث ذلك فجأة .. لم يشعر أحد بالكارثة المقبلة .. شح الماء شيئاً فشيئاً .. توقف بعدها .. لم يعد بمقدوره حمل مزيد من الماء .. ناله التعب

والضجر .. صار أخدوداً عميقاً .. شرخاً هائلاً يشق الأرض بعد أن كان خضماً يرزح بثقل سائل الحياة .

انتهزت الصحراء الفرصة .. شنت حرباً شعواء لا تبقي ولا تذر .. زحفت بجنودها لتطرد السهل بزرعه وضرعه من على ضفتي النهر الذي فقد حتى اسمه بعد أن فقد رسمه ليصبح مجرد أخدود خاوٍ .

كان أول ضحاياها الأشجار الباسقة الشامخة .. سقطت سريعاً صريعة .. أصفرّت الغابات عطشاً .. فرّت الخضرة بحثاً عن مكان آخر أكثر ماءً.

فقدت الغزلان والوعول والثيران الأمان .. هرعت جنوباً بحثاً عنه وعن غذاء وماء .. طاردتها الفهود والأسود خفية وعلانية .. ليس من أجل لحمها الشهي فحسب بل بحثاً عن سائل الحياة المفقود الذي تخلى النهر عن مهمته القديمة في توفيره للجميع .. لم يعد للفيلة مكاناً تلهو فيه فغادرت متأسفة تجر خطواتها جراً .

استوحش المكان .. صار لوحة جرداء من البؤس والعطش والشقاء .. خالية من الحياة .. وحدها الضِباب والحيات اتخذتها سكنا ومرتعاً ووطناً .. ضحك البوم فرحاً وطرباً .

هبت رياح عاتية هائجة .. لا يعلم أحد متى توقفت ولا سبب هيجانها وشراستها .. جلبت من المجهول رمالاً كثيفة ناعمة .. سترت به عري

المكان .. دفنت كل أثر للجمال والحياة .. جعلته قاعاً صفصفاً يباباً بلقعاً .. تكومت الرمال وتراكمت وتشامخت حتى صارت جبالاً .. قطعت آخر أمل للحياة في المكان .. صار جاهزاً ليكون مقبرة للعابرين .. عندها توقفت عن الهيجان .. تركته لوحة صفراء يشقها أخدود عميق متعب منهك .

تحاشت قوافل العابرين المرور من المكان .. قاطعت الأخدود بعد أن حرمها نعمة الماء .. كانت تتحاشى حتى المرور بمحاذاة الأخدود خوف اللعنة التي أصابته أن تلحقها .. اختارت دروباً أبعد وأشق .. لكنها كانت أكثر أماناً .

ذات غفلة أو ربما ذات عناد .. حلت قافلة بالمكان متخلية عن حذر العابرين المعتاد .. رغبة في اختصارٍ للوقت كما تقول الرواية قد يؤدي لمكسب أكبر .. لكن للصحراء قوانينها الصارمة التي لا تحيد عنها.

وحده من عارض الاستهانة بقوانين التجارة .. أصر على رأيه الذي اجتمع على مخالفته رفاق الطريق .. حتى بعد أن أطلق على أسماعهم أول درس يتعلمه السالك في دروب التجارة :

" أن تصل سالماً خير من أن لا تصل " .

لكن ربان القافلة أصر على المغامرة متحججاً بالقول القائل :

المغامرة والتجارة توأمان لا يفترقان .. للتجارة مكسبها وللمغامرة نكهتها.

قبل على مضض .. لم يكن له خيار آخر .. فالخلاف منبوذ في الصحراء حتى لو كنت وحدك على حق .. هكذا تقول الأسطورة .

سرعان ما انتقمت الصحراء لانتهاك قوانينها والاستهتار بها .. غضبت .. أرسلت عليهم عواصف شديدة الهيجان .. طمست أبصارهم عن تبين درب العودة .. قذفتهم تارة ذات اليمين وأخرى ذات الشمال .. أهالت عليهم أكواماً من الرمال .. كادت تغرقهم وتخنقهم بها .

سكنت وهدأت بعد أن نالوا العقاب المستحق لكل مستهين مستهتر معاند .

لم تقتلهم .

لكنها فعلت بهم ما هو أسوء من الموت .. فقدوا مائهم .. لم يبق في حوزتهم ما يكفي لاكمال الطريق أو حتى للوصول إلى أقرب نبع ماء .

لم تكتف بذلك .. فمخالفة ما تعارف عليه الناس ثمنه باهظ جداً.. أخذت منهم ما هو أهم من الماء .

لم يجدوا أثراً للطريق .

طمست الرياح معالمه .. تركتهم في صحراء صفراء جرداء مجهولة المعالم .. أرسلوا أربعة منهم للبحث عن الطريق الصحيح .. سار كل

منهم في اتجاه .. عادوا بعد أن نال منهم العطش والتعب .. اعترف أربعتهم بعجزهم عن معرفة الطريق الصحيح .

قرروا بعد اتفاق أن يسيروا في درب ظنوا أنه الأصوب .

لم يعترض .. فلا حاجة للاعتراض لعدم وجود خيار آخر إلا المضيّ إلى آخر الشوط كما تقول قوانين التجارة .

يبدو أن العقوبة لم تنته بعد .. لايزال هناك شوط آخر للعقاب وسوط آخر من العذاب .

توغلت القافلة وابتعدت في دروب التيه بحثاً عن النجاة .. نفقت دوابها تباعاً .. تخلت عن أحمالها تخفيفاً لأوزارها علها تصل إلى منبع ماء قبل أن يجتثها غريماها في الصراع : العطش والتيه .

حاولت الاهتداء بالنجوم فتاهت ذات اليمين وذات الشمال .. نفذت منها كل قطرة ماء كانت بحوزتها .. بقرت بطون دوابها الناجية من العاصفة لتشرب دمائها .. سارت أشواطاً أخرى في التيه .. لا نجاة تلوح في الأفق .. حامت في أعالي السماء طيور .

كانت تلك علامة أخيرة باقتراب النهاية .

استسلمت الحفنة الباقية من رجالها لقدرها .. انتظرت النهاية بأجساد هدها العطش والخوف واليأس .

كان من بين من بقي مقاوماً محتفظاً ببارقة أمل .. فالأشياء الثمينة لا تمنح بسهولة .. للوصول إليها لابد من التضحية .. للحصول على اللؤلؤ لابد من الغوص في أعماق البحر .. كذلك الصحراء لا تمنح لؤلؤها إلا بالغوص في متاهاتها .

لابد من تقديم القربان .

ما يميز القرابين أنها دائماً غالية وأنها بحاجة لبطولة لتقديمها عن طيب خاطر .

التيه كان القربان .. فناء القافلة كان ثمناً باهظاً للحصول على شربة ماء .. يالها من صفقة .

اشتم رائحة غريبة .

لم تكن رائحة الفناء التي تحوم فوق الرؤوس بل نقيضه البقاء .. حدّث من تبقى من رفاق الكارثة المنتظرين لقدر يختارهم فرداً فرداً بأن سائل الحياة ليس بعيداً .. أشار أحدهم بإصبعه إلى السماء بعد أن أعجزه العطش عن النطق .. لايزال الطير يحوم بعيدا ..

فهم ما عناه رفيق الكارثة .. إن الطير ينتظر وليمته .. ولن يطول انتظاره .

رفض الاستسلام .. فالتاجر لا يتوقف عن المغامرة حتى وهو على فراش الموت .. اليوم الذي يتوقف فيه التاجر عن المغامرة يكون قد كتب السطر الأخير في سجل حياته .. حكم على نفسه بنفسه بالفناء .

تحامل فسار في اتجاه الرائحة .. تجاهل الطائر الحائم فوق الرؤوس بعيداً هناك في سمائه .. منحه الأمل شيئاً من القوة .. سار باتجاه التلال الرملية التي تسد عليه الأفق .. صعدها بمشقة وعناد .. خارت قواه بعد أن وصل لأعلى قمتها بعناء .. وجد الصحراء ممتدة أمام ناظريه المنهكين .. كان هناك في الافق طير حائم .. لم يكن يحوم في أعالي السماء .. بل كان أقرب إلى الارض .

لم يكن الطير الحائم يحمل رسالة الفناء .. بل كان رسول سلام كما اعتاد الناس أن يسموه .. استبشر خيراً .. نزل من التلال بما تبقى له من أمل .

كانت الجائزة عظيمة .

كانت الرائحة كما توقع رائحة الحياة .. أسرع الخطى نحوها .

الجوائز العظام لا ينالها إلا من يستحقها .. ولا يستحقها إلا من كان ذا حظ عظيم .. أخيراً تخلت الصحراء عن عنادها وقررت إنهاء اللعبة .. لعبة البحث عن الحياة في متاهة الضياع .. مكتفية بما نالته منهم ثمناً لعنادهم وعصيانهم أعراف الطريق .

كشفت له الصحراء عن السر ..

لم تمنحه فرصة البقاء فحسب بل وسيلة للخلود بعد أن تلقى أهم درس يمكن أن يتعلمه تاجر عابر : لا تستهن بالأعراف .

يحلو لعشاق الأساطير نسج أساطيرهم حول كل شيء .. قيل أن النبع انفجر فجأة دون أن يكون لأحد يد في ذلك .. كل ما في الأمر أن قافلة اكتشفت مكانه .. رواة آخرون نفوا ذلك بشدة وأكدوا أن فرساً عطشى كانت في قافلة عطشى دقت الأرض بحافرها فانبجس السر .. بعض نقلة الحكايات يحلو لهم أن ينسبوا الفضل لعابرين نسوا شيئاً في المكان بعد أن مكثوا فيه للراحة .. عاد أحدهم لأخذه فانفلق النبع تحت سنابك خيله .. قيل غير ذلك الكثير عن سبب ظهور السائل السحري .. لكن ما لم يختلف عليه اثنان أن الجائزة كانت عظيمة .. فقد كان أعذب ماء في كامل الصحراء .. صار بعد ذلك أهم نبع ماء في كامل الصحراء .

الجوائز العظيمة عادة ما تكون ثمنا لفعل عظيم ..

منحتنا سلاحاً لمواجهة الموت الذي كان يتربص في كل وقت ينتظر ضحاياه .. منذ ذلك الحين عقدنا صلحا مع الصحراء .

أكتشف أن الصحراء لم تمنحه ماءً ليقتل به عطشه فحسب .. بل منحته نبعاً زلالاً صافياً .. أزال رملاً كثيراً .. كوّن حوضاً صغيراً من الماء

الرقراق .. شرب ماءً حد الثمالة .. استلقى على ظهره متلذذا بالطعم السحري .. تذكر رفاق الكارثة .

سارع بالعودة حاملا ماءً الحياة لانقاذ الرفاق .. لم يكن في السماء ذلك الطير الذي بشره باللقية الثمينة .. كان هناك طائر آخر يحلق هناك حيث ترك الرفاق .. أسرع بكل ما أوتي من جهد ليسبق ذلك السرب .. لكنها كانت أسرع .. اقترب أكثر .. من فوق التلال رأى سرب الطيور يحط فوق رؤوس الرفاق .. صاروا وليمة سائغة لها .. لم يكن لهم حظ من الغنيمة .

بكى ما طاب له البكاء .

توقف بعد أن أدرك أن البكاء في الصحراء لا يجدي نفعًا ..

دفن رفاق الكارثة .. شيد لهم قبوراً جليلة .. تليق بالقرابين .. فالقبور الجليلة لا تُمنح هباءً .. لابد أن يكون ساكنوها أبطالاً .. الموت عطشا في الصحراء أعظم بطولة .

بحث في ما تبقى من أغراض القافلة .. لم يكن يبحث عن طعام يشبع به جوعه في محنته تلك بل كان يفكر فيما هو أبعد من ذلك .. كان يبحث عن سلاح يحارب به طغيان الصحراء .

وجد أخيراً بغيته ..

كانت تلك رسالة أخرى عن تصالح الصحراء معه وتخليها عن عنادها وقسوتها وشراستها .. بكشفها له من سترها عن أهم أسرارها ماء الحياة .. احترام الخصوم من شيم الفرسان .. لم يهزأ بأعراف الطريق فكانت الجائزة من نصيبه وحده دون رفاقه المكابرين المستهترين بالصحراء وجبروتها .

حمل كيس التمر المتبقي من زاد قافلة لم يقتلها الجوع بل أفناها العناد .

عاد إلى اللقية الثمينة .

بذر نوى التمر حول اللقية .. ستكبر وتنمو ذات يوم لتكون علامة للعابرين .. لن تكون الطريق موحشة بعد أن تنازلت الصحراء عن عنادها .

تزود من الماء بحاجته .. غادر بحثاً عن طريق يوصله إلى غايته ..

لم يكن الماء عذباً فحسب .. لم تكن عذوبته ما ميزه .. بل شيء آخر لم يعهده في الماء من قبل : إنها الرائحة .

كان أنفه دليله للوصول والنجاة ..

عاد إلى المكان بعد سنوات بعد أن عجز عن مقاومة البعد .. كانت الرائحة تطارده .. حزم متاعه ويمم شطرها .. لم يكن عابراً هذه المرة بل

جعل من المكان موطناً ليعيش فيه ومدفناً له بجوار أجداث رفاق الكارثة الذين كانوا قرباناً وثمناً للوصول إلى هذا الكنز ..

كان سهلا الوصول إلى المكان بعد أن ترك خلفه علامة.

استدل أولاً على المكان بنوى التمر الذي بذره قبل سنوات .. صار نخلاً باسقاً يسر الناظرين .. ليس هذا فحسب .. بل وجدها محملة مثقلة بعراجين التمر .. كانت الرائحة دليله الثاني للمكان .. استنشق العبير قبل أن يحط رحاله أمام أجداث رفاق الكارثة .

بكى طويلاً .. بعدها يمم صوب النبع المحاط بسور منيع من النخيل الوارف .

لم تكن الذرية فقط ما استصحبه معه في رحلته تلك بل كان جرابه مليئا ببذور شتى أنواع المحاصيل .. قرر أن يتوقف عن ارتياد الأسواق تاجراً يعقد صفقة هنا وأخرى هناك .. قرّ قراره أن يعقد تلك الصفقة التي لا تخسر أبداً .. عقدها مع النبع هذه المرة .

منحته الصحراء جائزة على وفائه لها .. أكرمه النبع بعد أن اختار مجاورته .. لفظ له من جوفه طيناً .. كانت أنفس هدية تمنح بعد سائل الحياة .. تخلص من أكوام الرمال التي أحاطت بالنبع .. حل محلها الطين الملفوظ من جوف النبع .

على طين النبع زرع زرعه .. من نبته رعى ضرعه .. بنى من الحجر قصراً .. مهيبا يشرف من عليائه على نبعه .. يتنسم العبير المنبعث من النبع ..

على الحجر نحت قصته .. نحت كل ما دار حول النبع من أحداث ووقائع .

توالت السنون .. عادت للمكان سيرته الأولى بعودة قوافل العابرين للمرور ليس بمحاذاة النهر الذي انقلب أخدودا كئيباً .. بل إلى جوار النبع الذي صار حوضاً بهيجاً .. فاح في أرجائه عبير الحياة بعد أن طرد رائحة الموت .. صار بوابة للصحراء والحياة .. دبت الحياة في العين التي أصبحت ملاذاً ضرورياً لكل راغب في الذهاب بعيداً في الصحراء دون أن يخشى عطشاً .. لم تكن تتزود بحاجتها من الماء فحسب بل بحاجتها إلى الزاد أيضاً .. كان تمرها رطباً جنياً .. حملته معها ليس كزاد لها فقط بل حملته سلعة إلى أمم ليس لها حظ في مثل هذا الغذاء الثمين اللذيذ .

صار المكان بعد ذلك جنة خضراء تسر الناظرين العابرين .. بل تغريهم بالبقاء ومشاركته الوطن الجديد .

تكاثرت القصور حول النبع ..

قيل أنها سبعة قصور .. قال آخرون أنها أكثر من ذلك .. لاتزال مواقع تلك القصور باقية إلى الآن .. يمكنك زيارة بقاياها في أي وقت .

بعد دهور اتخذ أخطر قرار .

اتخذ من الطين "الهدية" هذا الصرح الطيني المهيب الجبار الذي تراه جاثماً وسط هذه الصحراء في تحدٍ وكبرياء ..

لم يتخذ من الطين صرحاً إلا بعد أن تخلى عن الحجر الذي ظن فيه صلابة لا تقهر .. بنى به قصوره وأسواره .. نحت على سطحه رسائله ووصاياه وقصصه وأحداثه اليومية بشتى الطرق ومختلف الوسائل .. نحتاً ونقشاً ورسماً .. اكتشف بعد قرون أن الحجر لا يملك الصلابة الكافية ليقاوم عوادي الصحراء .. كان البديل الأقوى هبة النبع : طينه .. بنى صرحه بالهبة فكانت أنفس جائزة ..

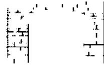
من تلك النخيل التي أحاطت بالنبع اتخذ أسقفه وصنع أبوابه وخزائنه .. استعلى واستطال .. تخلى عن الحجر إلى الأبد .. بعد دهور أخرى صار الصرح الطيني تحفة لم تشهد لها الصحراء مثيلاً ولا نظيراً .. صار جوهرة في الصحراء بل جوهرة الصحراء .

عم الصمت من جديد .. توقف الضفدع كذلك عن التغريد .. يبدو أنه انبهر مثلي بالحكاية .. هبت نسمة باردة ارتعش لها بدني .. قلت له قبل أن يغادرني :

- الآن عرفت سر الرائحة العجيب .. أشكرك يا صديقي .



تلك الليلة لم أنم حتى بعد أن دونت كل تلك التفاصيل التي زودني بها .. سرح بي الخيال بعيداً .. ليس عبر المكان بل عبر الزمان .. هام بي مع تلك القافلة المنكوبة التي كانت قرباناً لاكتشاف سر الحياة ..



6 يناير 1943م

في الليلة التالية التقينا في نفس المكان ..

كان السبّاق للوصول هذه المرة .. وجدته جالساً على ضفة العين أشبه بعابد يتعبد في محرابه.. وأقرب لعاشق يتضرع لمعشوقته .. لم نكن على موعد مضروب للقاء .. لكننا كنا مصابيْن بنفس الداء .. مفتونين بعشق العين وما لها من تأثير على النفس .. الآن عرفت سر اختياره لمقهى باب بحر بطرابلس المواجه للبحر .

جلستُ على مقربة منه ليس بالقرب المزعج له ولا بالعبد النائي عنه .. كنا وحيدين في نفس المكان .. لم أقطع تأمله لمعشوقه حتى بإلقاء التحية .. قد يفسد ذلك تأمله فآثرت السكينة .. مر وقت طويل على جلستنا رأيته مبرراً كافياً لتبادل بعض الحديث .. قلت :

- هل كان دوفرييه صديقاً لوالدك رحمه الله ؟

لم يلتفت ولم يغير من جلسته .. أجاب :

- لم يكن صديقاً لكنه كان يرغب في المعرفة .. دله أحدهم على أبي ليزوده بما يريد معرفته .

بعد فترة صمت أخرى تخللها تغريد الضفدع مناجياً بدوره معشوقه في مكان ما أو ربما يعلن لأمة الضفادع عن موعد قصة جديدة مثيرة من قصص النبع الذي يتشاركون سكناه معهم .. بعد أن أنهى الضفدع وصلته قلت :

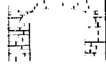
- قال ابن عمك إنك شهدت ذلك اللقاء .. هل تذكر ما جرى بينهما ؟

بعد فاصل متبادل بين ضفدعين أجاب :

- في الحقيقة كنتُ صغيراً حينها لكني التقيته قبل أن يحل ضيفاً علينا في بيتنا .. أبي أيضاً التقاه مرة قبل أن يدعوه لزيارته تلك .
- أنا في شوق لسماع ما دار بينهما .. عن ماذا كان يسأل ؟ .
هلا تفضلت علي بسرد تلك الواقعة .

توقف الضفدعان عن المناجاة ربما حباً في سماع قصة شيقة كقصة البارحة .. لم يغير من جلسته ولا من تأمله للقمر المنعكسة صورته على ماء النبع .

طال صمته كمن يحاول أن ينتقي ما سوف يبوح به .. بعدها استرسل في سرد تلك الواقعة ليس على لسانه بل على لسان أبيه .



سار بتأنٍ .. يعتمر قبعته الغريبة .. تتدلى من رقبته قلادة مجهولة المعدن .. تدل على ديانته بجلاء .. يتحرك بحذائه ذي الرقبة الطويلة دون ضوضاء .. يتفحص كل ما حوله من وراء عدستي نظارته بعيون زرقاء خبيرة .. يتلمس الجدران بأصابع عليمة .. يتفحص خشب الأبواب .. ينحني إذا لزم الأمر للانحناء لتفحص حجر في جدار .. يتطاول لملامسة خشب سقف الزقاق إذا انتابه شك في وجود ما يستدعي فحصه .. يدوّن بين الفينة والأخرى على دفتره الصغير .. يرسم أحياناً في دفتر أكبر .. ليس أول من فعل ذلك ولن يكون الأخير .

***

اعتادت الواحة على` قدوم الغرباء .. منذ زمن بعيد جداً .. منذ أن اكتشفوا موقعها وأهميتها ونفاسة ما فيها ومن فيها .. تعددت أسباب مجيئهم .. أتها بعضهم غازياً وبعضهم صانعا أو حرفيا .. أما ملة التجار فكانت صفة أغلب من جاءها .. قليلون جاءوها لاجئون .. ثلة قليلة تأتيها بحثاً عن شيء ما .. لا يفصح عنه .. يخفي نواياه خلف قناع من

الابتسامة والطيبة .. بعضهم لم يكن يعنيه موقعها ولا أهميتها بل جذبه نفاسة ما فيها .. هؤلاء كانوا أخطر القادمين .

تعلمنا منذ القدم الحذر من كل غريب .

***

كنتُ جالساً بجوار العين حين رأيته لأول مرة .. سمعتُ عن قدوم غريب مع القافلة القادمة من طرابلس .. كان حديث المجالس .. ليس لأنه غريب فالواحة اعتادت على استقبال الغرباء .. لكن الغريب في هذا الزائر أنه ليس تاجراً ولا صانعاً ولا حرفياً .. الأغرب أنه من أمم اعتادت واحترفت أن تجوب الصحراء في جيوش غازية .

ما زاد من غرابة أمره قوله بأنه يرغب في مصاحبة أول قافلة متجهة للجنوب .. أكد أنه يرغب في دخول أرض السودان .. أضاف أنه لا يثق إلا في قوافل واحتنا .. وحدها يمكن أن توصله ليس إلى ممالك السودان فقط بل إلى تمبكتو تحديداً .

***

مذ حل بالواحة وهو يتفحص كل شيء فيها .. يبحث عن شيء لا يعلم عنه أحدٌ شيئاً .

في المرة الثانية التقيته وأنا خارج من البستان .. كان يغسل يديه في مياه الساقية .. تأملتُ وجهه من مكاني .. انتظرتُ مروره على مقربة مني .. لم أعره أي اهتمام .. ما أن اجتازني حتى قلت له :

- هل أنت فرنسي ؟

التفت إلي فرحاً .. سألني :

- جميل أن أجد من يتحدث الفرنسية ..
- هناك كثيرون يتقنونها هنا .. نحن تجّار نتعامل مع أقراننا من ملل مختلفة .. عليك أن تحسن الحديث بلسانهم فإذا لم تأمن شرهم أمنت مكرهم على الأقل .

ابتسم .. كان يحمل شيئا في يده .. سألته :

- هل وجدت ما تبحث عنه ؟
- ليس بعد .
- لن تجد شيئا دون مساعدة .

كان واضحاً أنه يخشى أن يفصح عن سره كعادة الغرباء .. قرأتُ ذلك بسهولة في عينيه الزرقاوين .. في المرة الثالثة التقيته .. كان يحمل بعض الحجارة في يديه .. سألته :

- هل هذا ما تبحث عنه ؟

أشار لما في يده .. كانت بقايا زير طيني و بعض الأحجار المختلفة .

- ماذا يعني لك هذا ؟

- إنه التاريخ .. أنا أبحث في التاريخ .. يقال أن الرومان كانوا هنا ذات يوم .

- لكنهم ليسوا هنا الآن .. هذا الذي تحمله ليس تاريخاً .. إنه بقايا زير نصنعه لتشرب منه الماشية والدواجن .. يمكنني أن أهديك منه حمل بعير .. وهذه الأحجار يمكنك أن تحمل منها ما يشيد مدينة بأسرها .. عن أي تاريخ تبحث ؟

- أبحث عن تاريخ أسلافي .

- أسلافك لم يكونوا هنا .. فأنت تبحث في المكان الخطأ .

- الرومان .. أتحدث عن الرومان .

- الرومان مروا من هنا كغيرهم .. لن تجد هنا أثراً لهم .. هم لم يخلفوا آثاراً أثناء سيرهم بل تركوا خراباً ويباباً أينما حلوا .. الصحراء لم تكن لهم موطناً قط .. بل كانت مطمعاً .. قد تجد أثرهم في مكانٍ غير هذا .

تركني وأكمل رحلة بحثه .

***

التقيته مرة أخرى ..

هذه المرة كان منحنياً على جدار في أحد المجالس يتفحص حجراً من أحجاره .. هو من استوقفني هذه المرة .. أشار للحجر الناتيء من الجدار .. كان يحمل نقشاً بارزًا :

- هذا ما خلّفه أسلافي .
- كيف جزمت أنه من تركة أسلافك ؟
- لأنهم يحسنون مثل هذا النقش ؟
- هل تعني أنه لا يحسن مثل هذا النقش سوى أسلافك؟
- لم أعنِ هذا .. لا أستغرب أن يتقن ذلك غيرهم .. لكن ما استغربته كيف يوضع حجر مثل هذا في مكان عام كهذا .
- سأخبرك أمراً هاماً .. هذه طريقة أسلافي لحفظ ما يخشون من ضياعه .. إخفائه عن العيون قد يسارع في ضياعه .. لكنه الآن أمن بقائه في مكانه .
- هذا يعني أن هذا الحجر يعني لأحد ما شيئا في ذلك الزمان .
- لاشك في ذلك وإلا لما وضعه في هذا الموضع المشاع للجميع .
- إلا يخشى ضياعه ؟
- خشيته من ضياعه ما جعله يحفظه بهذه الطريقة .. ألا ترى في بقائه طيلة سنوات لا حصر لها في موضعه حيلة ذكية للإبقاء عليه .
- حيلة ماكرة .. لكنه بهذه الطريقة قد يفقد بريقه وقيمته .

- قيمته في بقائه هنا وبريقه في أن يتذوق جماله الجميع .. احتكار الجمال أولى دركات القبح .. أما أعلى درجاته فإشاعته للعالمين .

- أسلافي لا يتعاملون مع الجمال بهذه الطريقة .

- لكن أسلافي يفعلون .

- يعمد قومي إلى جمع النفائس في مكان واحد يسمونه متحفاً .. يشرعون أبوابه لكل راغب في الاستمتاع بتلك النفائس .. يقيمون عليه حرساً شداداً غلاظاً خشية أن تُسول لأحدهم نفسه أن يعبث بتلك النفائس .

- أما قومي لم يجدوا وسيلة لحفظ نفائسهم من صائدي النفائس إلا بحفظها بهذه الطريقة .. إشاعتها للناظرين كانت أشد انواع الحراسة لها وأبغضها على العابثين .

- تختلف طرائق التفكير من أمة لأخرى .

- أجل لكل أمة تجاربها .. والخسران لمن يضيع تلك التجارب دون استخلاص الفوائد .

- هل هذه طريقة مشاعة لحفظ مثل هذه الكنوز الجميلة ؟

- أجملها وأنفسها نحفظه في أقدس مكان وأعظمه لنستمتع بجمالها سائر اليوم : إنها في المساجد والزوايا .

- المساجد !

طلب منه مرافقته في جولة قصيرة .. دخل به حرم أحد المساجد بعد أن اشترط عليه أن يتطهر أولاً .. انبهر لكثرة التيجان الحجرية المنقوشة

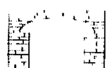
الموجودة فيه .. لم يكن نقشها جميلاً فحسب بل كان دقيقاً بارعاً .. هكذا عبر عنها بعد انتهائها من تلك الجولة .

كانت تيجان الصلد المنقوشة بتلك البراعة تحمل على عاتقها حمل الأقواس الطينية المسؤولة عن رفع سقف المسجد دون كلل طيلة تلك السنوات .. كانت لوحة بديعة اشترك في صنع جمالها الطين والحجر في تناسق فريد .. برز من خلاله جمال النقيضين الصلابة والليونة .. الخشونة والرقة .

بعد ذلك طلب منه أن يزوره في بيتنا ذات يوم فهناك ما يستحق أن يراه باحث مثله .

هكذا حدثني أبي عن زيارة دوفرييه .. وثق به فدعاه لزيارته في البيت .

أما عن يوم الزيارة فقد كنت شاهداً .



عاد ليتجرع صمته ويستانف تأمله في اللوحة الفاتنة خصوصاً بعد أن توسطها قرص القمر .. عاد الضفدعان لاستكمال حوارهما .. اكتفيتُ تلك الليلة بما باح به .

رأيت قبل أيام التيجان التي تحدث عنها .. رأيتها في أكثر من مسجد وزاوية .. كانت كما وصفها رائعة منحوتة بإتقان وبراعة .. حاولت نقلها على الورق ..

.. إذا ما فكرت بالحصول على إحدى تلك التيجان النفيسة فعليك ان تحتاط للسقف الذي تحمله فإنه سينهار فوق رأسك ربما قبل حتى أن تنتهي من استخلاصه من مكانه .

هؤلاء القوم يفكرون بطرق مختلفة عن الآخرين .. ربما هذا ما يميزهم عنهم .

يبدو أني أقترب كثيراً من اللقاء بحجري الفريد ..



صورة لصخرة قديمة منحوتة بمثلثات ونباتات كانت مصاحبة لهذا المنشور .. اعتقد أني اشاطرهما الرأي في جمال النحت .. لكني لأول مرة أسمع بطريقة الحفظ الغريبة للنفائس والفرائد التي تحدث عنها .



7يناير 1943م

باولو بدا لي هذا الصباح مضطرباً على غير عادته .. حاول أن يبدو على عكس ذلك .. لكنه فشل فشلاً ذريعاً .. صرتُ خبيراً بأحواله فلم يعد صعباً عليّ قراءته .. قال بعد إلحاحٍ مني لمعرفة سبب اضطرابه :

- أخشى أن شيئاً ما سيحدث قريباً قد يعكر صفو هذه الواحة الآمنة .. الكولونيل زاني مشغول بأمر ما .. لم نعد نراه .. لا يغادر مقر الحامية

.. أخبرني الطبيب أن صديقه ليس على ما يرام .. هناك أمر ما يدبر في القلعة .

- هل يتعلق الأمر بالحرب ؟

أومأ برأسه إيجاباً .. قلت :

هذه الحرب كدّرت على الناس صفو عيشهم .. متى تلفظ أنفاسها؟ .

لم يفصح أكثر .. ربما ليس لديه إلا القلق ليبثه في نفسي .. اشتقت لعائلتي .. أسأل الرب أن يجنبهم ويلات هذه الحرب .

دمرت هذه الحرب أوروبا .. ملايين من البشر قضوا وقوداً لها دون أن يجنوا مقابل ذلك إلا مزيداً من الدمار والموت والخسران .. أليس من بينهم رجل رشيد ؟.

أحسد أهل هذه الواحة ..

استطاعوا دائماً أن يجنبوها ويلات الحروب والخراب .. تربطهم بواحتهم علاقة الأم بأبنائها .. يتبادلون معها الأدوار .. فساعة يكونون أبناءً بررة بأمّهم وأحايين أخرى يكونون أمّاً رؤوماً بواحتهم ومن الصعب الفصل بين الحالتين ..



الجمعة 8 يناير 1943م

لا يزال الطقس بارداً جافاً .. مع منتصف النهار نستمتع بشيء من الدفء .. لم تجُد السماء بالمطر مذ حللت بالواحة .. كعادتي خرجت قبل الشروق إلى النبع .. سبحتُ في ماءه الدافيء .. انعشت روحي .. على الرغم من برودة طقس السحر الشديدة لم يمنعني ذلك من الاستمتاع بالسباحة إنه وقتي المفضل للسباحة أو المناسب .. بعد هذا الوقت لن اتمكن من ذلك فالنبع يزدحم بالناس .. لن أنعم بالهدؤ الذي أنشده إلا قبل الشروق ..

سحر النبع لا يكمن في عذوبة ماءه بل حتى في هندسة شكله .. يبدو أنه كان في زمن غابر يحظى بقداسة من نوع ما .. فإحاطته بسور صخري وبابين يفضيان إليه ودرجات توصلك إلى ماء النبع يجعلك تعتقد ذلك .. أما توزيع قنواته الخمسة التي توزع ماءه على أرجاء الواحة منحته شكلاً خماسياً غير منتظم الأضلاع ..

ألا يشير ذلك إلى النجمة ذات الخمس زوايا ؟.

أشرقت الشمس وأرسلت شيء من دفئها .. كان ذلك إيذانا بانتهاء وجبتي الصباحية من السباحة .. بدأ الاهالي بدورهم بالتوجه إلى أعمالهم .. عدتُ إلى الفندق لتناول الافطار .

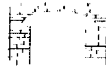
على مائدة الإفطار نجح باولو في أن يكدر صفو يومي .. لم تعد بي رغبة في جولتي اليومية ولا حتى جلستي الصباحية على ضفاف نبع غسوف .. بقيتُ في غرفتي .. حتى الكتابة لم تكن بي رغبة فيها .. استلقيت على السرير متفكراً فيما قاله باولو حول ما يخطط في القلعة .. انتقلتُ بعدها إلى هناك حيث أنجيلا وجاك .. صليتُ من أجل سلامتهما .

مع اقتراب النهار من الانتصاف طُرق باب غرفتي .. كان باولو بوجهه البشوش الذي عرفته به .. يبدو أنه أزال ما في نفسه من كدر بعد أن نجح في تكديري .. قال إن أحدهم يطلب لقائي على عجل .

إنه صديقي باموهميد .

غريمي في عشق النبع الخالد غسَوف .. أرسل يدعوني لزيارته في بيته .. لم تسعني الفرحة .. إنها الفرصة التي أنتظرها .. جاءتني على طبق من ذهب .. الحجر أخيراً على مرمى حجرٍ مني .. زال كل ما في نفسي من كدر سببه لي باولو ..

حل مكانه أمل لا حدود له .



أسرعتُ باستبدال ثيابي .. تأنقتُ كما ينبغي للمناسبة التي أعتبرها فتحاً عظيماً في رحلتي ومكافئة لجهودي .. انتظرتُ الآذان على ضفاف النبع .. مر وقت طويل على جلوسي .. لأول مرة أشعر بملل .. كنتُ في شوق للقاء حجري .. أعتقد أن ما يفصلني على لقائه هو هذه الدقائق .

كانت أطول مما توقعت .

أذّنت مآذن الواحة في موعدها المعتاد .. زادت سرعة دقات قلبي مع كل لحظة تمر .. انتظرت الوقت الكافي لأداء الصلوات .. فاليوم يوم الجمعة والصلاة تأخذ وقتاً أطول من المعتاد .

توجهتُ نحو المدخل القريب من مكان لقائي بصديقي المهووس بغسوف .. التقيته في ساحة السوق التي تسمى بلسانهم : " تصكو " .. لم يكن وحده .. كان ابن عمه يقف إلى جواره في انتظاري .

تبادلنا التحايا ..

سار أمامنا كما تقتضي الأصول هنا في صمت مهيب .. فللكلام مكانه وزمانه عندهم .. سرنا في عدة أزقة أفضت بنا إلى زقاق معتم .. بالكاد تبينتُ طريقي .. استعنتُ بيدي في تحسس مساري بينما هما سارا في الزقاق المعتم كما لو لم يكن كذلك .. وقف أمام باب داره .. دفعه ..

تنحنح .. كانت تلك علامتهم التي تعارفوا عليها لتتنحى النسوة ويفسحن المكان لغريب سيحل بمكانهن .. كثيرة هي طقوسهم ومتداخلة ولكنها طريفة وجميلة .. في كل يوم أكتشف مزيداً منها ما يزيدني إكباراً وإجلالاً واحتراماً لهم .

ولج إلى سقيفة البيت .. تبعناه .. رائحة عطر تفوح في السقيفة .. غريبة هي أيضاً كغرابة كل شيء .. ارتقينا عدة درجات لتفضي بنا بعدها لصالة البيت ويسمونها بلسانهم " تمانحت" .

لم يكن هذا أول بيت أدخله من بيوت الواحة الكثيرة .. فقد تجرأتُ ودخلتُ بعض بيوت من عقدتُ معهم صداقات أثناء تجوالي .. كما أني تفحصتُ بعض البيوت المتهدمة هنا وهناك .. كانت ملامح البيوت متشابهة في كل شيء .. ليس كونها مشيدة من لبن الطين فحسب بل حتى بما حوته من أثاث وما أبدعته أناملهم من رسوم على جدران كامل البيت ابتداءً من سقيفته إلى أعلى مكان فيه .. لكن ما أن وقفت في مدخل تمانحت هذا البيت حتى شعرت بأني في بيت مختلف .

لم تكن رائحته ما ميزه عن غيره .. ولا رسوم جدرانه الحمراء ولا حتى نقوش ألواح الجبس في الجدار الرئيسي في تمانحت البيت .. كما أن لمعان نحاسياته الكثيرة المبثوثة في كل أركان تمانحت البيت لم تكن ما ميزه ، فجُل البيوت كانت لها نفس الملامح والموصفات ، وإن اختلفت في حجمها وسعتها فقط .. أما باقي المكونات فهي تكاد تكون نسخة واحدة ..

خاصة تلك الحجرة الصغيرة في طرف الباحة المغطى بستارة حمراء .. إنها أشبه بمكان عبادة .. عندما سألت عنه أول ما رأيته عند أول بيت زرته قيل لي إنه خدراً الزوجة .. ربما كان ذات يوم معبد البيت حور بعد ذلك ليصبح خدراً للزوجة .. أو ربما ينظرون للعلاقة بين الزوجين بقدسية كبيرة مما نراها نحن لمثل هذه العلاقة .. هذا ما يوحيه شكل المكان .. أو كلا الأمرين معاً .. لن أستغرب ذلك .

كانت الشمس ترسل شعاعاً من فتحة السقف .. منحت تمانحت البيت إضافة للضياء مسحة من السحر .. بدت الرسوم الحمراء الكثيرة على الجدران أشبه بعوالم الجان التي تحكي الجدات قصصهن .. لم تخف على مضيفي وابن عمه حيرتي وإعجابي وانبهاري بالمكان .. طلب مني الجلوس في صدر المكان الذي بثت فيه وسائد كثيرة مختلفة التطريز كانت الوسائد لوحات بديعة بدورها .. اتخذ مضيفي مجلسه عن يميني بينما ابن عمه كان على يساري ..

أحضر شاب يافع الطعام .. كان ذلك ابنه كما بدا من الشبه الواضح بينهما .. وجبة دسمة من الثريد واللحم .. أكلناه في صمت .. كان عقلي مشغولاً بالحجر .. أبحث عن مكانه بعيني في انتظار فرصة الحديث عنه .. انتهينا من الطعام .. قام ابن عمه بإعداد الشاي .

انبرى باموهميد قائلاً :

- هنا استضاف والدي منذ عقود بعيدة دوفرييه .. كنتُ صغيرًا حينها أصغر من ابني هذا بسنوات .

- رائعٌ هذا المكان .. هذا ما يسمى عندنا متحفاً أو ربما معبداً .

- لكنه عندنا مجرد بيت يملك مثله كل أهل الواحة .

- هذا الجمال لا يمكن وصفه بغير تحفة .

- إذاً فما أكثر التحف في واحتنا .. فكل بيوتنا فيها ما تراه هنا .. بل بعضها أجمل بكثير من هذا البيت ..

- أجمل بكثير ؟

- نعم .. تعرض هذا البيت لبعض الضرر ما اضطر الأسلاف لإصلاحه وهذا ما أفسد ه .

- أفسده ؟

- تجديد البيت يفقده أهم ما يميزه عن سواه .. يفقده أصالته .

- أصالته ؟

- يمكنك بعث الطين إلى الحياة من جديد لكن ما نقش على صدر الطين لا يمكن إحياؤه .. هذا ما أفقد البيت أصالته .. أعاد الأسلاف الطين لسابق عهده لكنهم فشلوا بل عجزوا على محاكاة ما كان على صدره من رسوم ونقوش .

- كيف يعجز من استطاع أن يحفظ هذا الكيان من عواصف الصحراء وتعاقب السنين و صراع الجبابرة من حولهم أن يبعث ما بث فيه من رسوم ؟

- ذلك فعل السنين .. كما تمنح الأشياء أصالة بتقادمها .. تنزع منك مقابل ذلك أشياء ثمينة .. ما تفقده الواحة بمرور السنين ونتحسر على غيابهم هم أولئك الذين منحوا وسيلة بث تلك النقوش والرسوم في جدران الواحة .. تستبدلهم بآخرين أقل أصالة من سابقيهم مهما حاولوا أن يثبتوا لنا عكس ذلك .. الأسلاف ابتدعوا هذه الرسوم أما من خلفهم في وراثة هذه التركة يحاكيهم في فنهم .. هذا ما أفقد بيتنا أصالته مقارنة بأقرانه من البيوت التي لم تتصدع بفعل الزمن ولم تتأثر بعد بتقلباته .. بعد أن جار عليه الزمان وفقد قدرته على الصمود أكثر .

- ما الذي صدع أركانه ؟.

- تصدع بفعل أمطار جادت بها السماء ذات شتاء .. لم تعهد الواحة مثل تلك الأمطار .. على الرغم من كل ما احتاطت به الواحة من قبل لمثل هذه المواقف رغم ندرتها .. إلا أن السنين قد أوهنت من عزمه .. قاوم قدر استطاعته .. خارت قواه تصدع جداره المواجه للعاصفة الماطرة بعد أن صمد طويلاً .. استسلم أخيراً .. بعدها توقفت العاصفة عن إرسال المزيد من مائها .. كأنها كانت في صراع معه فلما نالت منه توقفت .

بكى ذاك الجد الذي ورث البيت عن أسلافه طويلاً على ما حل ببيت العائلة .. لم يكن وحده من بكى تصدع البيت .. ربما الواحة كلها بكت لما حل به .. كان ذلك يعني ضياع شطر من تاريخ الواحة .

شمّر ذاك الجَدّ المنكوب عن ساعد الجِدّ .. خاض حرباً أخرى سلاحه فيها كان الطين .. استطاع بسهولة ترميم ما تصدع من جدران هذا البيت .. أعاد له شبابه .. لكن هذا الجدار كان لابد من إعادة بنائه من جديد .. لم يكن بالإمكان ترميمه كما أفاد معظم مروضي الطين بل أشاروا بالإسراع في إعادة بنائه .. ربما ذاك قد يسبب ليس انهيار البيت وحده .. بل ربما كل البيوت المحيطة به كذلك .. قد تمتد الكارثة أبعد من ذلك لتجر معها بيوت أبعد مكاناً مما تتصور .. فصمود البيت لا يعني صاحب البيت وحده .. لكنه يعني واحة بأسرها .. لذا وجب على الجميع أن يشمروا عن سواعدهم كلما حلت كارثة ما في أي جزء من الواحة .. فالمصير واحد والمصاب واحد مهما ظننت أنك في منأى عن الكارثة .

أعاد بناء الجدار كأحسن ما يكون .. صمد من جديد في وجه عواصف أخرى يقال أنها كانت مماثلة لتلك التي أصابته في مقتل .. لكنه هذه المرة صمد ببطولة وبسالة في وجه كل تلك العواصف .

ما تحسر له الجد كثيراً هو ضياع ما كان منقوشاً على الجدار المتصدع من زخارف لا يعلم أحد متى رُسِمت ولا من كانت مبدعتها .. كانت ضربة قاسية .. فقد البيت أهم ما مميزه عن غيره من البيوت بإزالة الجدار وإعادة بنائه .

- مبدعتها ؟

- أجل ... مبدعتها .

- هل من أبدع تلك الرسوم التَي كانت على الجدار إمراة ؟

- ليس ذاك الجدار وحده .. بل كل جدران بيوت الواحة .. كانت ولا تزال جدران البيوت المكان المفضل للنساء للتنافس .. أظهرن براعة في تحميل الجدران براعتهن .

- هل تعني أن هذه الرسوم كانت من أيدي نساء الواحة ؟

- ما الغرابة في ذلك ؟ ..

- الغرابة ليست في كون ذلك من إبداع نساءكم فقط .. كنتُ أعتقدت أن للرجال سطوة على كل شيء في هذه الصحراء حتى على هذا الجمال .. اتضح لي أن عليّ إعادة التفكير في كل ما كتبته عنكم .

فاحت رائحة الشاي .. تدخل ابن عمه لأول مرة في الحديث الدائر بيننا .. قال مجيباً على سؤالي :

- تشاطرنا مع نسائنا تشييد هذه الواحة .. كان على الرجال إقامة الصرح وحمايته أما شطر النساء من العمل فكان تجميله وتزيينه وتأهيله للسكنى فكان ما تراه .. لو تكفل الرجال بالأمرين معاً لما كان بهذا البهاء .. جُبلت الأنثى على عشق الجمال وتذوقه أكثر من الذكور .. ما فعله الأسلاف أنهم لم يزاحموهن على هذا الأمر .. اكتفوا بالاستمتاع بما ابتكرنه من جمال .

وزعت كؤوس الشاي الأخضر .. قلت بعد رشفة :

- في بلادي هذا الفن كان ولا يزال حكراً على الرجال فقط دون النساء .. لم نسمع بامراة احترفت هذه الصنعة .. بل أكاد أجزم أن هذا في كل أصقاع المعمورة حكر على الرجال دون النساء .. الآن علي أن أعيد النظر كذلك في هذا الأمر .

كيف استطعن هنا ان ينتزعن هذا الحق منكم ؟

أجاب باموهميد على سؤالي :

- ربما لغيابهم الطويل عن الواحة في رحلاتهم التجارية أتاح للنسوة حرية اتخاذ هذا القرار .. لم يعترض الرجال بعد عودتهم من أسفارهم الطويلة .. سكوتهم على ذلك لم يكن وحده علامة للرضا بل استحسنوا الأمر على ما يبدو .. لأن المنافسة استعرت بينهن كما هي العادة في ملة النساء .. كان ذلك من حسن حظنا هيء هيء .

أضاف ابن عمه بعد أن أعاد ملأ كؤوس الشاي :

- لم تكن الجدران كافية لتلك الحرب التي اندلعت بينهن بل اتخذن من الجلد والقماش مكاناً آخر للمنافسة .. فحِكن بخيوط الحرير ما يسر الناظر ويبهره .. لم يختلف اثنان في جمال وبهاء ما قمن به .. تكفلوا هم بتأهيل ما ظهر وبدى من الواحة .. أما هن فتكفلن بما بطن واستخفى منها .. تقاسموا الأدوار دون أن يتدخل طرف في شؤون الطرف الآخر .. كان ذلك عقد غير مكتوب بينهم .

تحسر باموهميد قائلاً :

- قد يستعيد هذا البيت قصب السبق من تلك البيوت الأقدم منه والأشد عِراكاً للزمن .. لكن بعد أن تعمل السنون عملها في تلك البيوت التي لا تزال صامدة في وجهه .

- لكن الرسوم تبدو هنا قديمة أيضاً .. بل من زمن مغرق في القدم على الرغم من نصاعة ألوانها ومحافظتها على بريقها.

- ستراها وليدة الأمس إذا ما منحتك الواحة شرف رؤية تلك الأقدم عمرا.

- كيف صمدت ألوانها كل هذا الدهر وحافظت على ألقها كل هذا الوقت؟

- الزنجفور .. إنه الزنجفور .

- زنجفور ؟

- هذا سر آخر باحت به الواحة لأحد من عشقوها ليخلد به حبها لها على الجدران .. استخلص الألوان من أحجار لفظها النبع بعد معالجتها لتمنح البقاء والخلود للرسوم .

- كثيرة هي الأسرار هنا .

- هي لا تكشف الستر عن أسرارها وجمالها إلا لمن تثق بهم .

استغرقتُ وقتاً في نقل تلك الرسوم على الورق .. كان الأمر متعباً لكثرة التفاصيل ودقتها .. سجلتُ كذلك كل ما زودني به من شروح .. الشاي وحده انتزعني من استغراقي .. رائحته لا تقاوم .. كنتُ حينها قد اكملت آخر رسم عندما قدم لي ابن عم مضيفي كأساً ثالثة مترعةً بالشاي الممزوج بالنعناع .

انشغالي بالرسوم القديمة كاد ينسيني الحجر الذي تكبدتُ كل هذا العناء من أجله ..

- لم لا تنقش هذه الرسوم على أسطح الأحجار ؟.. ربما ذلك قد يطيل عمرها ويحميها من أسباب الزوال .

- لا أعتقد أن أسلافنا فاتهم هذا الأمر .. ذات يوم كانت أسطح الأحجار المكان المفضل لهم لنحت رسومهم .. توارثنا بعضاً منها .. لكن جلها قد ضاع .

- ضاع ؟

- لم يبق من أثرهم على الحجر إلا النزر اليسير .. قد تحتاج الأمطار والعواصف مئات السنين وربما الآلاف لمحوا مابث على سطح الحجر .. لكن هذا لا يعني بقاؤه .. بقاؤه بعيداً عن مكانه يعني فنائه .. ضياعه ليس بمحو ما على سطح الحجر .. لكن ضياعه بامتلاك آخرين للحجر .. صارت أحجار الأسلاف مقصداً لكل طامع .

تنهد قبل أن يضيف :

- قد نتحسر طويلاً على ما يصيب الطين بسبب المطر وعواصفه .. لكن لن تكفينا حياتنا كلها ندماً على حجر واحد نفقده .. لذلك توقف الأسلاف عن نحت الحجر خشية ضياعه .. استعانوا بالطين الذي كان دائما الملاذ الآمن لهم ليس من المطر ولا من الرياح فقط ولكن حتى من عاديات الزمن ومن البغاة والطغاة والرعاع .

- صار الطين وسيلته لحفظ الوصايا .. ليس لهشاشته بل لمقدرته على العودة للحياة في كل مرة .

- هل تعني أن هذه الرسوم ترمز لوصايا ؟

- مذ تعلم الإنسان النقش وهو يبث رسائله من خلاله .. احتاج لطلسمتها برموز يفهمها حتى تصل لمستحقيها .. ربما لا نحسن قراءتها الآن لأهمالنا تعلم فن قراءة الوصايا .. هل تعتقد أن الأسلاف فعلوا ذلك عبثاً؟ .. لو كان الأمر كذلك لكان هذا هو العبث بعينه .

أضاف ابن العم :

- لم يعد النبع وحده ما يغري القادمين ولا التمر هو غاية العابرين بل الحجر .. تكالبت على الحجر ليس لقراءة الوصايا المبثوثة على سطحه ولا لاستذكار ما نقش عليه من عبر .. بل للسطو على الحجر وامتلاكه بعد أن جعلت منه السنون كنزاً يغري المغامرين بالمغامرة من أجله .. فُقدت ألواح كثيرة حملت على متنها الكثير من الأسرار .. ضاعت إلى الأبد .. كان لابد من البحث عن وسيلة أخرى لحفظ أحداث الواحة بعد أن صار الحجر مطمعاً .. لم يعد آمنا .. كان الطين من جديد على استعداد أن يكون الرسول بين الآباء والأحفاد .. تخلوا عن نقش الوصايا على الأحجار .. بعد أن تأكدوا من ضياعها ولو بعد حين .. ليس لعلة في الحجر بل لسوء الظن في ملة البشر .. لطمع في الكائن الأكثر عشقاً لامتلاك ما لا يملك .. لحفظ الوصايا لابد من البحث عن وسيلة لا تغري

تلك الفئة من البشر بالطمع في امتلاكها .. كان البديل لبث الوصايا الجبس الممزوج بالطين .. كما أن لطبيعة الوصايا سبباً آخر للبحث عن مكان أكثر أمناً لحفظها لتصل إلى الأحفاد بأمان .. دون الخشية من فقدها بسرقتها من طغمة عشقت جمع الكنوز وجهلت قراءة الوصايا والعبر .. ليس لصعوبة النحت على الحجر وسهولة نقش الطين بل لخلود هذه وفناء تلك بالفقد .. فالغاية من الوصايا هو خلودها وليس حفظها فقط .. ألواح الجبس حفظت جزءً من الوصايا التي نقشت ببراعة وطُلسمت بذكاء .. أما الحظ الأوفر منها فكان على الجدران أن تحمله .. احتاجوا لهذه المهمة أن يخطوها بما لا يمكن أن يزول بفضل تدافع السنين ولا يتأثر بشمس محرقة ولا برياح عاتية عادية ..

- فكان الزنجفور الهبة الثالثة .

بهذه الحيلة استطاعوا حفظ الأنفُس والرسوم .. قمعوا أطماع الطامعين .. بإمكان أصغر لص سرقة حجر ما ولكن الآن يستحيل على أعظم لص الحصول على شيء .. هذا يتطلب منه حمل أطنان من الجدران الطينية في رحلة شاقة في صحراء مهلكة وأخرى مماثلة لها في الشقاء في عرض البحر .. ربما لهذا السبب لم تستهويهم أسطح الحجارة مفضلين عليها جدران الطين المطلية بالجبس .

صدق أدموند حين طلب مني الحذر .. فمن يحمل في رأسه هذه الأفكار يصعب خداعه بل يستحيل .. هل رأى دوفرييه الحجر هنا ؟ .. عليّ أن أستدرجه للحديث عن الحجر .. سألته :

- هل تذكر ما دار بين دوفربيه ووالدك ؟

- لم أكن أتقن اللغة التي تبادلا بها الحديث .. لكن والدي أخبرني بعد سنوات من مغادرته للواحة بما جرى بينهما .. وصفه والدي بالرجل النبيل .. هذا سبب استضافته له في بيته .. لم يستضف غيره هنا من كل أولئك الرحالة الذين قدموا بعده .. كل من أتوا بعده قال عنهم أنهم لا يستحقون ذلك .. كان يقول دائماً من الصعب الثقة في أصحاب العيون الزرقاء .

- هل تذكر رحّالة آخر قدم إلى واحتكم منذ وقت قريب ؟

- أدموندو ؟

- نعم .. تذكره إذاً .

- ذاك أفّاق طامع لا غير .. لم يكن يسعى بحثاً عن الجمال كما أشاع بل كان يلهث وراء نقيضه المال .. الجمال والمال لا يلتقيان في قلب عاشق .. هذا ما كان يدندن حوله والدي طيلة عمره .. كانت وصيته لنا ان ننحاز لصف الجمال دائما مهما كان صف المال مغرياً .

- كنتُ أعتقد أن الجمال نقيضه القبح وأن الغنى غريمه الفاقة .

- الفاقة والتعاسة أن لا نحس بما حولنا من جمال .. والأسوء من كل ذلك أن يكون معيارنا الوحيد له هو المال .. أما الجمال هو أن نبذل في حرم الجمال كل مال .. بل كل نفيس وغال .

- كيف عرفت فيه تلك الخصلة الذميمة ؟

-من السهل معرفة ذلك .. اختبرته اختباراً صغيراً .. فشل فيه فشلاً ذريعاً .

- اختبار ؟

- نعم .

أزاح عن جدار صدر البيت ستاراً يغطيه من أقصى طرفه إلى أقصى طرفه الآخر .. كانت تستر ورائها كنزاً طوله قرابة المترين .. لم أكن أتوقع أني كنت أتكأ عليه طيلة وجودي في هذه الدار .

كشف الستر عن لوحة عجيبة .. منقوشةٌ نقشاً على سطح الجدار .. نقشت قبل مئات السنين هذا ما يمكن اكتشافه بقليل من التمحيص .. على الرغم من احتفاظها بكامل ألوانها التي لونت بها منذ نُقشت .. لم تفلح السنون في التأثير عليها كما تفعل في سائر الأشياء .

لونت باللون الأخضر تخللها الأحمر وقليل من الأصفر بنظام بديع ..

صُعقت ..

لم أنتبه لما تحدث به عنها .. ربما لم أستوعب ما قاله .. حكى الكثير .. كانت اللوحة تحمل أسراراً نُقشت بدقة ومهارة وحرفية وربما بمكر أيضاً على سطح الجدار الطيني المغلف بطبقة جبسية .. تحسستُ النقش بأصابعي .. سيفان متقابلان هنا وآخران هناك قد يرمزان لمعركة جرت ذات يوم حسب ظني .. خاتم ضخم يتوسطها قال أنهم ينسبونه للنبي

سليمان .. لا أذكر ما قاله عنه فقد كنتُ مأخوذاً .. لم يكن هناك متسع للسؤال .. أباريق موزعة هنا وهناك في اتجاهات متقابلة ومتعاكسة يجهل سبب وجودها في اللوحة .. قال أن اللوحة عاندت وقاومت أسباب الفناء بينما معاني ما حملته هي التي لم نحسن الحفاظ عليها .. قد تكون خارطة لشيء ما .. أو قصة لحدث ما .. لتحسن الاستمتاع بها عليك أن تفك طلاسم لغتها .

جلستُ في مواجهة النقش .. نقلته إلى الورق .. أخذ ذلك مني وقتاً أطول مما استهلكته باقي الرسوم .. تذكرتُ الاختبار الذي فشل فيه أدموندو .. سألته بعد انتهائي من نقل النقوش إلى الورق :

- لكني اتسأءل كيف فشل أدموند ؟ .. وما سبب فشله ؟
- سبب فشله كان هذه اللوحة .
- هذه اللوحة ؟
- نعم .. كانت مفتاحاً لفك طلسمه .. لم يكن كما وصف نفسه بل كما ظننته منذ الوهلة الأولى .. كان عاشقاً ليس للجمال بل للمال .. كشفتُ له عن باقي السر .. فوقع في الفخ .

أزاح بحركة من يده ما تبقى من الستارة التي كانت تستر لوحته الجبسية الخالدة .. في أسفل الحائط في ركنه الأيسر كان الحجر يرقد بسلام .

أخيراً التقينا ...

خرس لساني عن النطق .. تقدمتُ نحوه .. فقدتُ إحساسي بالمكان والزمان .. تحسستُ الحجر بأناملي .. تتبعتُ النحت الظاهر على سطحه .. تأملته .

الآن فقط أدركت نجاعة حيلتهم في حفظهم لكنوزهم .. تذكرت الاختبار الذي فشل فيه أدموند .

ربما أنا الآن أخضع لنفس الأختبار .. هل سأنجح فيه أم سيكون مصيري مصير أدموند ؟ .. هل سيصفني بالنبيل كما وصف أباه دوفرييه من قبل أم سأحمل لقب الأفاق المخادع الطامع أسوة بأدموندو ؟.

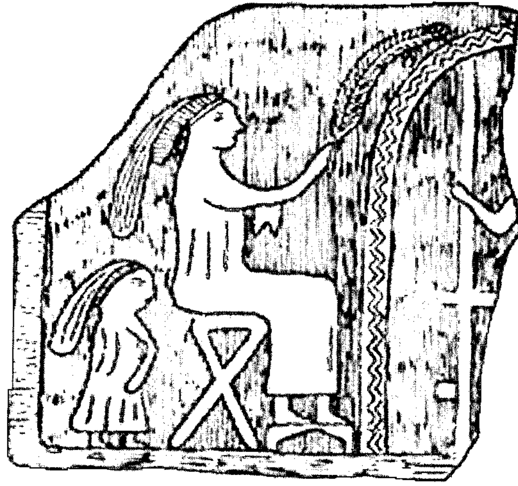
آذان العصر كان إيذاناً بانتهاء اللقاء ..

غادرتُ بيته بعد أن أسرفتُ في شكره ليس على الثريد واللحم بل على ما منّ به علي بالتمتع برؤية تحفته النادرة .

الحجر كان بين يدي منذ دقائق .. لم يسعفني الوقت حتى لنقله على الورق .. يا لحظي العاثر !

هل تعمد ذلك ؟

لو تقصّد ذلك لكان ما قاله أدموندو عن الحذر في حضرتهم صحيحاً .. يالك من عجوز عظيم باموهميد !



نقلته من ذاكرتي إلى الورق .. لم يتح لي طويل وقت للتمعن في تفاصيل الحجر .. استجمعت ما علق منها على الورق .. استهلكتُ ورقاً كثيراً .. توقفت عن الرسم عندما رسمتُ صورة قريبة مما رأيته في بيت مضيفي باموهميد .

ما يؤسف له أن اللوحة لم تكن كاملة .. فقدت جزءً منها .. ربما يكون ما فُقد منها أهم مما بقى منها .. أو ربما ما تبقي منها جزء يسير منها .. حاولتُ تفسير المشهد المبثوث فيه ..

من الصعب قراءة شيء من مشهد مبتور .

قدر دوفرييه عمر الحجر بما يزيد عن ثلاثة آلاف سنة .. وواضح من الثياب التي يرتديها الشخصان الظاهران وتسريحة شعرهما على صحة ما

ذهب إليه .. منذ وقت طويل توقف الناس عن لبس هذه الثياب .. إنها شبيهة بتلك التي يرتديها الفراعنة في رسوماتهم .

شخصان ظاهران للعيان يظن دوفرييه أنه امرأة جالسة على مقعد وخادمتها .. تحمل المرأة مروحة من سعف النخيل هذا ما يبدو جلياً .. ذراع شخص ثالث في الطرف المفقود من الحجر .. يستحيل تحديد هويته .. قد يكون رجلاً أو أمرأة أخرى .. قد يكون هناك المزيد من الشخصيات في الجزء المفقود من الحجر .

ماذ يفعلون ؟

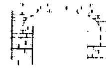
هل هو طقس تعبدي ؟ ..

هذا ما أشار إليه دوفرييه .. وهذا ما أميل إليه حسب ما رأيت .. فثلاثة آلاف سنة أو يزيد لم تظهر الأديان السماوية المعروفة بعد .. هذا ما عزز فرضية دوفرييه على ما يبدو .

للنخلة في هذه الواحة مكانة عظيمة .. هذا لا يخفى على أحد .. لكن ما دور جريدة السعف التي تحملها المرأة ؟ ..

لا أظن أنها لاستجلاب الهواء !

لم يحدثني مضيفي عن الحجر .. موعد الصلاة كان السبب .. سأحاول استخلاص ما يعرفه من معلومات حول الحجر في أول لقاء يجمعني به.



مساء الجمعة 8 يناير 1943م

عدتُ إلى الفندق .. وجدتُ باولو مشغولاً مرتبكاً .. قال إن ما يخشاه قد يقع قريباً .. ما فعله الكولونيل زاني قبل أيام لن يمر مرور الكرام .. هجوم حاميته الصغيرة على الفرنسيين في معسكراتهم على الحدود مع الجزائر عمل أرعن غير مبرر وغير محسوب قد يكلف غالياً .. لن تسكت فرنسا على هذا التهور .. الكولونيل أيضاً يتوقع رد فعل الفرنسيين ويحاول أن يتأهب لهم .. انقطع تماماً عن زيارة الفندق .. حتى الطبيب لم يعد يتمكن من الاتصال به ولا معرفة ما يدور في مقر الحامية .. الوضع غير مطمئن .

أضاف باولو :

- شمس فرنسا في شروق مستمر بينما الفاشست شمسهم تغرب ربما إلى الأبد .

لم أتناول عشائي على الرغم من إلحاح باولو .. لم تكن بي رغبة في الطعام بقدر ما كنتُ بحاجة للخلوة بنفسي .. أرغب في صفاء الذهن لأتمكن من إعادة التفكير بكل ما جرى اليوم ..

وما ينتظرنا في قادم الأيام .

المكان الوحيد القادر على منحي الصفاء هو النبع الخالد غسوف .. أسرعتُ قبل غروب الشمس للجلوس هناك ..

تلك الليلة التقينا من جديد على ضفاف نبع غسوف .. كنتُ السبّاق للوصول لأني في شوق لاستكمال ما أجهله عن الحجر ....

وصل هو في وقته بعد الآذان الأخير لصلاتهم .. جلس في مكانه المعتاد .. بدأ طقسه اليومي في التأمل .. لم نتبادل التحايا .. لم نكن بحاجة لذلك .. كلانا مشغول الذهن بأمر ما .. بدأت الضفادع في نوبة طويلة من النقيق المتبادل .. هي أيضاً لديها ما يشغلها .

خطفتُ نظرة نحوه .. لايزال مستغرقاً .. هل يفكر مثلي فيما جرى بيننا ظهر اليوم ؟ .. أم أن هناك شيئاً آخر يشغله ؟.

مر وقت حسبته طويلاً كافياً ومبرراً لانتهاك خلوته :

- كيف فشل أدموندو في الامتحان ؟

أجاب بعد فترة صمت طالت حتى خلت أنه لم يسمعني أو أنه تجاهل الرد على سؤالي .. هممتُ بإعادة السؤال .. فجاء رده :

- فشله لم يكن في عدم تقديره للجمال بل بطريقة تقديره لهذا الجمال .
- وكيف قدره ؟
- ساوم كمحتال .. عرض علي مالاً بغباء .

- مقابل ماذا ؟

- مقابل أن يكون له الحق في امتلاك الحجر .. كان هدفه الحجر منذ البداية لم تخني فراستي فيه .

- جُبل الإنسان على حب الامتلاك .. ربما هذا ما يشفع له .. جمال الحجر سبب كافٍ لامتلاكه .

- الطمع أسوء عدو للإنسان .. يجعلك تستهين بالآخرين في حين أنك تهين نفسك قبل الاستهانة بالآخرين دون أن تشعر بذلك أو دون أن تبالِ بذلك .

- ربما لم يكن عرضه سخياً .

- مهما بلغ سخاؤه .. حتى لو غطت أمواله نبع غسوف هذا نفسه فتلك إهانة لا تغتفر .

- هل قيمة الحجر في ما حمله من نقش أم في كونه تركة للأسلاف لا يمكن التخلي عنها للآخرين ؟ .. أم أنه يحمل رسالة ما ؟.

- اجتمع في الحجر كل ما قلتَه فيه .. غير أنه ليس بتركة بل إرث .

- لا أرى فرقاً بين الكلمتين .

- التركة ما يمكن تركه والتخلي عنه .. ألا ترى في اللفظ هذا المعنى؟ .. كما أن للتركة خصائص لا توجد في الإرث فهي – التركة - يمكنك أن تهبها أو تهديها أو تبيعها أو ترميها وهذا ما لا يمكن أن ينطبق على هذا الحجر .

- الأمر بحاجة لمزيد بيانٍ وتفصيل .

- يحقُ للمرء بيع ما يملك أو إهدائه وهذا لا ينطبق على الحجر .

- ألست تملك الحجر ؟ .. أليس هو في دارك ؟ .

- كونه في داري لا يعني أني أملك التصرف فيه .. وجوده في داري يمنحني شرف رؤيته والتمتع به في كل وقت وحين أكثر من الآخرين فحسب كما أنه يحملني عبء حمايته وحراسته في كل وقت وحين أكثر من الآخرين .

- من يملك ذلك إذاً ؟ .. ربما يتنازل عنه ذات يوم لو وجد مقابلاً مغرياً للتفاوض .

- هذا الحجر ليس تركة شخصٍ واحد يمكنه التصرف فيها على هواه .. إذا أردتَ التفاوض على امتلاك الحجر فعليك التفاوض مع كل مالكيه .. عندما تستطيع إقناعهم يمكنك بعدها امتلاكه والانتفاع به .. وسوف أنتزعه لك من الجداربنفسٍ راضية .

عاد لتأمله ..

عادت كذلك ضفادع النبع لنقيقها وكأنها تترجم ما دار بيننا من حديث.

هل هو جاد فيما قاله ؟

هل يمكن التفاوض مع أصحاب التركة وإقناعهم بالتخلي عن الحجر ؟

يتطلب إنجاز مثل هذه الصفقة أموالاً طائلة .. فكلما زاد عدد الورثة زاد الثمن المدفوع .. قد أتحصل على قرض يعينني على هدفي .

ليس أمامي سوى المحاولة .. إنها الطريقة الوحيدة للحصول على الحجر النفيس .. ما سوى ذلك يعد من العبث الذي لا طائل من ورائه .. قلتُ مستفسراً :

- كيف يمكنني التواصل مع أصحاب التركة ؟

تخلى عن صمته من جديد .. صمتت الضفادع في انتظار ما ستؤول إليه الصفقة :

- لتحصل على الحجر عليك التفاوض مع أهل الواحة كلهم فهو ليس إرثٌ لشخصٍ بعينه أو لعائلة ما .. بل هو أرثُ أمةٍ كاملة .. ليس الأحياء منهم الآن فقط بل حتى أولئك الذين لم تلدهم أمهاتهم بعد .. عليك التفاوض معهم إذا كنتَ جاداً وممن يحسن فن المفاوضة .

طريقة التجار في المفاوضة أن يرفع السعر أولاً إلى أقصى حدوده الممكنة .. لكنه الآن لايتحدث بلسان تاجر أدمن المفاوضة قبل أن يعقد صفقته .. بل بلسان حارس أدمن الحرص على حماية بضاعته .. إنه يسد الباب في وجهي بطريقة محكمة لا يمكن فتحه .. الطريق الوحيد لفتح مثل هذ الباب هو تحطيمه وأنّى لي ذلك .

ستضيع على فرنسا فرصة امتلاك حجر نادر كهذا الحجر كما ضاع من قبل حجر رشيد .. هذه المرة ليس الإنجليز غريمها في الصفقة .. بل أهل الحجر وورثته من يقفون أمام هدفي .

تعالى نقيق الضفادع .. ربما استحساناً لما آلت إليه المفاوضة .

هل كل أهل الواحة بنفس هذه الروح ؟

ربما لو كان الحجر في بيت آخر لكان الأمر أسهل .. أم أن الأمر سيان ياترى ؟.. أينما حل الحجر وجد من يذود عن حماه بشراسة .

عليّ أن أنسَى الحجر بل عليّ التخلص من التفكير في الاستحواذ عليه .. ربما بقاؤه هنا يبقي للمكان سحره .. ما دام في هذه الواحة مثل هذا الرجل فلن يضيع الحجر كما ضاع جزء منه لسبب مجهول .. وكما ضاعت أحجار أخرى يجهل عددها وما حوته من نقوش ونحوت .

نقله من هنا إلى أوروبا ربما يمنحه فرصة أكبر للظهور لعشاق الفن والجمال والبحث في أرجاء العالم .. أما بقاؤه هنا يزيد من قيمة لا الحجر وحده ولكن النبع والواحة وأهل الواحة معه .. أما هذا العجوز باموهميد فتعجز الكلمات عن وصفه .

- لا أعلم ماذا يعني لكم حجر نُحت على سطحه طقسٌ وثني تعبدي من قرونٍ بعيدة في القدم ..

أضفتُ :

- كما أنّ دينكم ينهى عن مثل هذا حسب ما أعلم عن دينكم .

عادت الضفادع لتمارس نقيقها كأنها تطالب بردٍ على هذا السؤال .. صمتت بعد أن أنهت وصلة كاملة من الاحتجاج .. عاد بدوره ليرد على سؤالي :

- ما نُحت على الحجر ليس طقساً وثنياً .. بل هو طقس يومي في واحتنا من قبل نحت الحجر .. مافعله ناحت الحجر هو تصوير لعادة لا تزال سائرة بيننا حتى اليوم .. تناقلتها الأمهات من الجدات وهن بدورهن ينقلنها للحفيدات .

- عادة ؟

- إنه طقس تعليمي .. بين أم وابنتها .. إنه الدرس الذي تعلمته الأم ذات يوم من الجدة وكان لزاماً عليها أن تنقله إلى الحفدة بواسطة الابنة .. هذا الطقس هو ما نتج عنه تلك الرسوم التي تزين جدران البيوت عندنا .. جلست أمي ذات يوم هذه الجلسة .. أتذكر ذلك جيداً .. أراه الآن ماثلاً أمام ناظري .. تجثو إلى جوارها أختي الصغيرة .. تعلمها كل يوم كيف ترسم تلك الزخارف لتنقلها ذات يوم لن يكون بعيداً لجدران بيتها بواسطة الزنجفور .. لتقدم لوحاتها التي أبدعتها هدية لبعلها .. إنه الدرس الأهم لها في حياتها عليها أن تستوعبه جيداً .. إن أتقنته وأجادته كانت أهلاً لتكون أماً لجيلٍ جديد من أبناء هذه الواحة .. أما إذا فشلت في الدرس فسيكون عقابها وخيماً .. لن تكون أهلاً لحمل رسالة الجدات للحفيدات .. لن تكون أهلاً للأمومة التي كان على عاتقها

منذ الأزل حمل الرسائل .. إنها رسالة البقاء .. ربما نجهل ما في هذه الرسوم من رسائل .. لكن نسائنا يعرفّن ذلك ولا يبُحن به إلا لبناتهن فقط .. إنها رسالة مكتوبة بوضوح على الجدران يمكنك الاستمتاع بمشاهدتها لكنك لا تستطيع فك طلسمها .. وحدهن لهن القدرة على ذلك .. إنه السر الذي حظين به واستأثرن بحفظه ولم يبحن به حتى لأقرب الأقارب .

طقس حافظن عليه بحذر وحب وعشق .. نقلن عبر هذا الطقس تراثاً وإرثاً .. تطور مع مرور الأزمان وتعاقبها ليصلنا في صورته هذه .. ابتكرن لرسمهن ألواناً لا تشيخ مع مرور السنين بل تزداد لمعاناً وتألقاً وقيمة .

لم يتخذن من الرسم حرفة بل اتخذن منه حرفاً .. نقلن عبره الرسالة .. في رسمهن خط .. في خطهن حرف .. في حرفهن شعر .. في شعرهن بوح .. في بوحهن فن .. في فنهن روح .. في روحهن قلب .. في قلبهن واحة .. في واحتهن رجل .. في رجلهن عشق .. عن عشقهن رسمن فناً فيه بوح شاعر نفث عشقه .

نسمات باردة هبت .. صمت من جديد .. عاد لتأمله .. عادت الضفادع لتبادل النقيق .

غادرني بعد أن انهى حديثه .. بل أنهى رسالته .

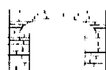
كان علي أن أسهر طوال تلك الليلة حتى أعيد تدوين كل ما جرى بيننا .. أعدتُ رسم الحجر مرة أخرى .. كانت هذه المرة أجمل بكثير من سابقاتها بل أعتقد إنها طبق الأصل .

راجعتُ الخريطة التي كنتُ أستعين بها في بداية جولاتي في أزقة الواحة .. حددتُ عليها مكان بيت مضيفي بسهولة .. يمكنني زيارته في أي وقت حتى بعد عشرات السنين .. ربما ليس لرؤية الحجر والتمتع به فقط .. قد يكون في استقبالي ابنه اليافع .

هل سيكون جديراً بحمل رسالة أبيه ؟

ربما يزوره ابني جاك ذات يوم .. هل سيحسن التفاوض أم سيفشل مثلي؟

استطعتُ كذلك رسم وجه باموهميد بسهولة بعد أن عجزتُ عن تجميع ملامحه من قبل .. لكن هذه الليلة طاوعني القلم ورسمته وابتسامة خفيفة بادية على محياه .



الإثنين 11 يناير 1943 م .

في الصباح استيقظتُ متأخراً على غير عادتي لم أسبح في النبع .. تناولتُ إفطاري مع باولو .. عدتُ بعدها إلى غرفتي لأستعد للخروج في

جولتي اليومية المعتادة .. أعدتُ قراءة كل ما كتبته .. عدتُ بخيالي إلى أحداث يوم الجمعة .. يوم كشف لي عن الستر الذي يخفي وراءه السر .

تناولتُ رسم الحجر .. تأملته من جديد للبحث عن تفاصيل ربما تكون قد فاتتني رسمها .. لكن طرقٌ قوي على الباب أفزعني وأعادني لواقعي .. فُتح الباب دون انتظار الطارق للإذن ..

كان ذلك باولو .. على وجهه علامات الفزع .. قال :

- حدث ما كنتُ أخشاه ..
- ماذا حدث ؟
- الفرنسيون .... سيشنون غارة جوية على الحامية الإيطالية .. عليك بالحذر .. أنصحك بإلغاء جولتك اليومية .
- لماذا ؟
- كنتُ موقناً أنهم سيثأرون لهجمة الكولونيل زاني الغبية على حاميتهم على الحدود .. أخشى أن يكون ردهم كارثياً .
- تباً للحرب .
- الأفضل أن تضل بعيداً عن الأسقف والجدران .. هكذا تقول التعليمات .

القلق يجتاح كل شيء .

صدق باولو في حدسه .. حدث ما كان يتوقعه .. بعد قرابة الساعتين تعالت أصوات الطائرات في أجواء الواحة .. هديرها أصم الآذان وزاد من هلع الناس .. خرجتُ من غرفتي إلى مدخل الفندق لرؤيتها .. اختلط الحابل بالنابل .. الناس تجري في كل اتجاه بحثاً عن النجاة .. أعمدة الدخان تتصاعد من كل مكان في محاولة لتظليل الطائرات عن أهدافها .. اقتربتُ من مدخل الواحة .

الارتباك عم كل شيء .

المنادي يطلب من الناس مغادرة الواحة إلى المزارع والبساتين خشية انهيار البيوت على ساكنيها .. الأهالي في فزع يهرعون لتلبية أمر المنادي .. الأطفال يبكون يتشبثون بأثواب الأمهات وعلامات الرعب مرسومة على وجوههم الباكية .. كان مشهداً فظيعاً مؤلماً .

الخوف يتسيد الموقف .

حامت الطائرات فوقنا عدة مرات .. بحثاً عن عساكر الحامية الذين توزعوا في كل مكان .. عجزت الطائرات عن رصد مقر الحامية بعد تعالي أعمدة الدخان في السماء .. بدأت برمي حمولتها دون اكتراث لمكان وقوعها .

الموت يبحث عن ضحايا .

سقطت قنبلة في مكان ما داخل الواحة .. كان لدوي الانفجار أثر زاد من رعب الناس .. ارتفعت النيران والغبار في السماء .. قنبلة أخرى سقطت في مكان آخر .. دويها صم أذني .. يبدو أنها قريبة جداً من مكان تحصني .

عدتُ مسرعاً إلى الفندق .. وجدتُ باولو يذرع مدخل الفندق في قلق واضطراب .. تنفس الصعداء ما أن رآني .. هرع إلي قائلاً :

- إياك أن تغادر المكان .. قد تتعرض لسوء من الأهالي .
- لماذا ؟
- لا تنس أنك فرنسي .
- ما علاقة ذلك بما يحدث الآن ؟
- طائرات فرنسية فوق الواحة ترمي حممها وفرنسي يتجول بين الأهالي .. ماذا تتوقع أن يحدث ؟
- لن يحدث شيء لي فلا تخشى شيئاً .

الحزن يخيم بظلاله على الواحة .

توقفت الغارة بعد أن رمت الكثير من قنابلها .. انفجر بعضها .. يقال أن خلقاً كثيراً قد قضوا في الغارة .. لم تستثن أحداً نساء شيوخ أطفال شباب رجال .. كما أن بيوتاً كثيرة تهدمت وتهاوات وانهارت وأخرى تصدعت ..

أقدم مساجد المدينة انهار بنيانه تماماً.. بينما تصدع مسجد آخر بجواره .

السوق صار كومة من حطام .

تذكرتُ الحجر .. إنه يتعرض لغارة من السماء للمرة الثانية .. هذه المرة ليس أمطاراً بل حمماً .

هل سيصمد ؟

***

الثلاثاء 12 يناير 1943 م

في اليوم التالي خرجتُ أنا وباولو من الفندق باكراً للوقوف على حجم الكارثة التي حلت بالواحة أولاً وبأهلها ثانياً .. انضم الطبيب لنا بعد أن قضى معظم نهار الأمس في تفقد الجرحى والمصابين .. سألناه عن الكولونيل زاني أكد أنه بخير ولم يصب أحد من الحامية بسوء!..

لكنه يستعد لما هو أسوأ .. عندما سألته عن ذلك أجاب :

- ستغادر الحامية الإيطالية قريباً وإلى الأبد هذه المرة .

دخلنا الواحة .. كان ركام البيوت المتهدمة يسد الكثير من الشوارع الرئيسية .. قاطعة بذلك التواصل بين الأحياء فيما بينها وبين بعض أزقة الحي الواحد .. الأهالي في صراع مع الركام لفتح تلك الطرق أولاً

وللوصول إلى بعض من لم يحالفهم الحظ بالخروج إلى المزارع والبساتين .. الحزن يخيم على الوجوه .. كانت الخسارة فادحة وغير متوقعة ولا مبررة ..

نصحني باولو بالعودة حتى لا نثير غضب الأهالي .

في المساء خرج الأهالي يحملون جثامين القتلى إلى مقبرتي الواحة .. كان عدد الناجين من تحت الركام قليلاً كما علمت لاحقاً .

أربعون شهيداً تقاسمتهم مقبرتي الواحة .

خرجت الواحة كلها لوداعهم والصلاة الأخيرة عليهم .. مسحة حزن خيمت بظلالها على سماء الواحة .. صليتُ بدوري من أجلهم .. لم أجرؤ على الدخول مجدداً إلى الواحة .. كانت بي رغبة جامحة للاطمئنان على البيت الذي يحوي تلك الرسوم والحجر .. كنتُ أخشى من أن يكون من بين البيوت الكثيرة المتهدمة .. سقوط تلك البيوت خسارة كبيرة لما تحويه من إرث كما يحلو لصديقي با موهميد وصفه .

باموهميد ؟

كيف نسيته ؟ .. هل نجى من الكارثة أم كان أحد الأربعين روحاً التي حصدتهم قنابل فرنسا ؟

كان لابد لي من معرفة ذلك وليكن ما يكون .. تجرأتُ ودخلتُ الواحة .. دخلتُ ساحة السوق التي خلت من الباعة والدلالين لأول مرة مذ حللت بها .. صارت كومة من حطام .. فتح ممر بالكاد يمكن المرور منه .. خلت المصاطب التي كانت عامرة في مثل هذا الوقت بالمسنين والكهول .. لا مكان إلا للحزن في الواحة .. الجميع يعمل من أجل إزاحة الكارثة وإعادة ما أمكن من معالم الحياة التي فقدتها الواحة جراء غارة غاشمة حاقدة أضاعت أهدافها لتصيب ليس الواحة متمثلة في طينها فحسب .. بل الواحة متجسدة في إرثٍ عظيم ممتد من أجيال غارقة في القدم .. إنها جريمة نكراء بكل المقاييس .

أوروبا تنقل أحقادها خارج أرضها .. تصفي حساباتها على حساب الآخرين ..

سرتُ إلى الشارع المفضي إلى بيته .. اقتربتُ .. كان الركام يسد الطريق .. تكوم الزقاق بكل بيوته .. تهدم .. صار كومة من تراب بعد أن كان صرحاً عملاقاً قبل يوم واحد فقط .. الرجال والفتيان وحتى الأطفال مشمرون عن سواعدهم يزيحونه في همة لفتح الطريق .. دعواتهم تعانق السماء .. تدعوا على من كان سبباً في ما حل بهم .. لن تتأخر السماء عن الانتقام لهم .

ويلٌ لفرنسا من دعوات الأبرياء .

كان ابن عمه من بين الحشد الذي حاصر جبل الركام بحثاً عن منفذ للوصول إلى قلب الركام .. أحدهم تفطن لوجودي فأشار له .. التفت .. تقدم نحوي .. تجلد ما استطاع ... دموعه تفصح عما عجز لسانه عن البوح به .. أخيراً خرجت الكلمة الوحيدة التي استطاع أن ينطقها :

- با موحمد

بعدها انهار باكياً كم انهار الصرح تحت ضربات القنابل .

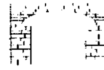
فهمت .. كان باموهميد يرقد تحت الركام .. تحت ركام جداره الذي حرس كأسلافه على حمايته وحراسة ما بثته نسوة الواحة من وصايا على سطحه .. دفن تحته .. صار قبراً له .. جبل الركام كان هائلاً .. يحتاج الوصول إليه جهداً كبيراً ووقتاً طويلاً .

ضاع الحجر .. ربما إلى الأبد .

كانت فرنسا وراء كارثة القافلة التي قضى فيها أبوه نحبه .. وها هي تعود من جديد بعد أربعة عقود لتكون لها اليد الطولى في تدمير واحته بل وقتله هو نفسه .

ويل لفرنسا من انتقام السماء .

وداعاً باموهميد .



خرجتُ إلى النبع مبكراً تلك الليلة .. دون تناول العشاء الذي اجتهد باولو في طهيه .. خرجتُ لأفرج عن حزني في موت باموهميد .. ضاق العالم بي .. لم أجد مكان أبثه حزني إلا النبع .

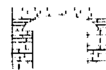
حين جلستُ تلك الليلة على حافة النبع .. كانت الضفادع صامتة هي الأخرى .. ربما الفزع أخرسها .

بكيتُ طويلاً .. باموهميد رجلٌ جدير أن تبكيه الرجال .

جاء ابن عم باموهميد .. جلس في المكان الذي كان يحلو لابن عمه الجلوس فيه لتأمل النبع .. كانت زيارته الوحيدة للنبع في ذلك التوقيت .. كان حضوره الصامت تلك الليلة ليقدمِ لِي واجب العزاء في باموهميد .

ياللك من عظيم باموهميد .

اشتقتُ لجاك وأنجيلا كثيراً .. دعوتُ الله كثيراً أن يحفظهما .



غادرت الحامية الايطالية .. قبل ذلك اجتمع الكولونيل زاني بالأهالي .. قدم لهم عزائه في قتلى الغارة - التي كانت له اليد الطولى في حدوثها- .. فتح مخازن الحامية لأهالي الواحة .. كان يقدم لهم اعتذاره بطريقته ..

أباح لهم كل ما حوته مخازنه من مؤن .. كان يفضل أن لا تقع غنيمة في أيدي الفرنسيين الذين ينتظرون مغادرتهم ليحلوا محلهم .

غادر باولو رفقة الطبيب أيضاً .. بقيتُ وحدي في الفندق .. فراغ كبير تركه غياب باولو .. افتقدت صديقاً عزيزاً كان خير معين لي في رحلتي .. من الصعب الحصول على صديق نبيل مثله .

دخلت فرقة من القوات الفرنسية لتحل مكان الإيطالية التي أجبرت على المغادرة .. استعادت الحامية الفرنسية ما تركه الطليان من مؤن للأهالي .. مازاد من حنق الأهالي على فرنسا .. وحق لهم ذلك .

صارت الحياة لا تطاق .. كانت الكراهية مرتسمة على وجوه الأهالي .. يمكن قرآتها ببساطة في قسمات حتى الأطفال .. بتُ أخجل أن أسير في أزقة الواحة التي فتحت لي صدرها وكشفت لي عن بعض أسرارها بعد ما حل بها من بني جلدتي وأمام ناظري .

هاهي فرنسا التي كانت دوماً سبباً ليس في تعكير مزاج الواحة ولا في فقد أبنائها فحسب بل في دمار عمرانها الذي عجزت العوادي على فعله طيلة قرون وقرون .. كما وقفت جيوش كثيرة احتراماً وإجلالاً أمام أسوارها لتصدهم عن غيهم .. لكن فرنسا لم تقف أمام الأبواب كما يليق بل استعانت بالأجواء للاقتحام .. سيظل الركام شاهداً على فعلتها القبيحة

وجريمتها الشنيعة .. ستكون رسالة صامتة للأجيال القادمة على فعلتها وسوء نيتها .

أنصح فرنسا بإعادة بناء ما دمرته غارتها .. ليس تكفيراً عن ذنب جنته في حق الواحة فقط بل لجريمة نكراء في حق الإنسانية جمعاء .

فهل من مجيب ؟

ربما موت باموهميد كان هدية الواحة التي أحبها بجنون فبادلته الجنون .. مات تحت أنقاض بيته حتى لا يشهد بأم عينه أعداء الأمس الذين كانوا سبباً في موت الأب وخسران التجارة للأبد في ضربة واحدة وكذلك سقوط ليس جداراً في بيتٍ كان يحرسه فقط بل سقوط جزء كبير من تاريخ الواحة يحرس ويحرص هو وأهالي الواحة على المحافظة عليه لإيصاله إلى أجيال لم يولدوا بعد .

دفنته الواحة تحت الجدار الذي كان أميناً على حفظ ما حواه من أسرار الأسلاف كعادة أهله .. وحتى لا يشهد سقوط المسجد الأقدم في الصحراء كلها .. موته كان راحة له حتى لا يشهد المصير الذي آلت إليه الحرب .. دخول أعدائه ظافرين إلى واحته وسيرهم في أزقتها بكل وقاحة كان أقسى من أن يحتمله .

بمقاييس باموهميد موته يعد هدية ثمينة !

بعد أربعة أيام من الجهد المتواصل بالكاد استطاعوا الوصول إلى باموهميد في مرقده تحت الركام .. انتزعوه انتزاعاً من أحضان الركام .. دام الصراع ليوم كامل حتى تنازل الركام أخيراً عن الجثة .. كان يرقد مطمئناً تحت الجدار كما وصفه ابن عمه .. أعادوا دفنه في المقبرة إلى جوار رفاق الكارثة .. أصر ابن العم أن تكون حفنة من تراب الركام رفيقا له في قبره .. ربما لهذا تخلى الركام لهم عن الجثة .

كان آخر من دفن من أهل الكارثة .. شهدتُ جنازته من بعيد .. كان وداعاً مهيباً .. خسرت الواحة أحد حراس كنوزها .. تذكرتُ حديثه في إحدى ليالينا على النبع عن كارثة القافلة ليست تلك التي كانت سبباً في فقد الأب بل تلك التي كانت سبباً في ظهور النبع .. تذكرت وقوفه على رفاق كارثته وكيف تحدث عنها كأنهم رفاقه هو .

التيه ذات يوم كان ثمناً للوصول لأهم سر .. ما هو القربان الذي يجب تقديمه للحصول على المزيد من الأسرار في هذه الصحراء ؟.

وقفتُ من مكاني البعيد لوداعه ووداع رفاق الكارثة الفرنسية وكل الكوارث التي كانت سبباً لوصول كل هذه الأجساد إلى قبورها هنا .. فأصحاب هذه القبور كان لهم الفضل في تشييد أعظم صرح في كامل الصحراء .. فهم أهل للوقوف على قبورهم والصلاة من أجلهم .

فلتهنأ في قبرك باموهميد وليرحمك الله في نومتك الأخيرة .

قررت بدوري المغادرة .. لن أطيق البقاء أكثر .

طلبتُ من ابن عمه أن يدلني على قبره قبل مغادرتي الواحة في اليوم التالي .. قادني بصمت .. دخلنا المقبرة التي ضمت بين أحضانها آلاف العابرين .. آلاف الحراس الآمينين على ما جادت لهم به من أسرار .

وقفنا أخيراً أمام قبره الذي كان بين قبور عديدة مختلفة الأطوال .. بعضها لرجال وأخرى لنساء وأطفال .. كان بين رفاق الكارثة .. توسطهم .. تلوت عدة صلوات على روحه الطاهرة ..

ليرحمك الربِ باموهميد ..

خرجنا بعدها من المقبرة .. قبل أن نفترق أخرجتُ من حقيبتي بضعة أوراق قدمتها لأبن العم الغارق في حزنه الصامت .. تناولها مستفسراً بإيماءة برأسه .. تفحصها .. كانت تحوي رسوماً مختلفة لزخارف كانت يوماً على جدار تهاوى منذ أيام أمام ضربات فرنسا .. كان مَن بينها رسمة الحجر وفي أخرى وجه تلوح من محياه ابتسامة .. نظر إلي ممتناً .. قلت له :

- كان حارساً أميناً على الحجر الخالد .

أجاب :

- مات أمينا وسيظل أمينا .

- لم أعد أجد ريح تلك الرائحة الفريدة !

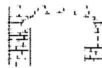
- لقد صرت مثلنا هذا هو السبب .. ستشتاقها بمجرد ابتعادك .. أعتقد أننا سنلتقي من جديد ذات يوم .

غادرته قبل أن تنهمر عيناه بدمع جاهد على كبحه .. فباموهميد أهل أن يبكيه الرجال .

وداعاً باموهمد .. وداعاً غداميس .. جاهدت بدوري دمعة .. أطلقتُ لها العنان بعد أن غادرته .



الصورة المصاحبة لهذا المنشور كانت لوجه كهل على محياه ابتسامة خفيفة .



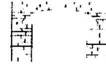
نشر الحفيد منشوراً جديداً على صفحته :

انتهت زيارة الجد إلى غداميس .. هناك بعض التفاصيل التي تعمدتُ تركها فربما أنشر ما في الدفتر كله في كتاب كما كان يخطط الجد وفشل في تحقيق ذلك في حياته .. لا أعلم سبباً وجيهاً لذلك.. ربما لم يسعفه الوقت أو أنه لم يتحصل على التمويل الكافي لذلك .. كما أن أبي جاك لم

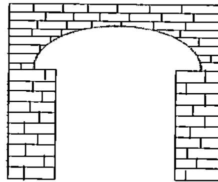
يعر أمر الدفتر أي اهتمام ولم يحدثنا قط عن رحلة جدي ميشيل ولا عن دفتره ولا عن رغبته في نشر كتاب عن رحلته الوحيدة .

خيب ظن جدي .. كان يتوقع أن يحاول بدوره الحصول على الحجر .

مات جدي ميشيل بعد عودته بسنوات قليلة .. لا أعلم سببا لوفاته .. ربما مرض ما أصابه .. فمن لم يمت بالحرب قتلته الأوبئة الناتجة عن تلك الحرب .. فتلك الحقبة كانت رهيبة مشينة .



في الحقيقة أنا أيضاً لم أنشر كل ما ترجمته من منشورات الحفيد المنقولة عن دفتر جده .. خشية الإطالة ولعدم ضرورة ذلك .. صاحب هذا المنشور صورة للحفيد حاملاً دفتر جده ميشيل .. أرجو أن يسارع بطبع الكتاب فلابد أن هناك المزيد عن سيرة باموحمد لم يفصح عنه .



لا أعلم سببا مقنعاً لترجمتي لبعض الردود التي وردت من أصدقاء الحفيد على منشوره الختامي .. الوصف الوحيد الذي يمكن أن يكون مقنعاً هو الداء الذي طالما أصابني في مقتل : الفضول .

ترجمتُ عدة ردود تُشيد بالحفيد على حسن صنيعه بنشر مذكرات الجد .. بعضها تلحُ في سرعة نشرها كاملة في كتاب مصاحبة لرسومات الجد .. أشار أحد الردود إلى إقامة معرض في قريته أو متحف يضم رسوماته كما جرت العادة .

أما الرد الذي استوقفني فكان سؤالاً موجهاً من صديقة للحفيد تساءلت فيه ما إذا كان ينوي زيارة غداميس لاحضار الحجر الذي فشل الجد في إحضاره لفرنسا وأهمل والده أمره تماماً ؟.

أعتقد أن مثل هذا السؤال حقيقٌ بأن يكون سبباً لمتابعة الحوار الذي جرى بينهما رداً واستفساراً وترجمته ونقله هنا .

كان رد الحفيد على سؤال صديقته :

-فكرتُ في الأمر ذات مرة .. حتى أن زوجتي لم تبد اهتماماً بالأمر إلا بعد أن قرأت هذه المناشير .

- هل أفهم من هذا أنك تعد لرحلة إلى غداميس ؟

- نعم .

- هل ستحضر الحجر لفرنسا ؟

- سأحاول .. ما يشدني أكثر هو زيارة المكان الذي سحر جدي من قبل لو قرأتِ كامل دفتره لسارعتي بشد الرحال انت أيضاً .. كما أن للزيارة أسباباً أخرى .

- هل هي أهم من الحجر ؟

- أعتقد أن ميشيل صرف النظر عن الحجر بعد سقوط البيت الذي حوى الحجر والبيوت المجاورة له كما تابعتيَ معنا في المنشورات السابقة .. سبب زيارتي هو الوقوف على المكان ورؤيته بروح جدي .. سأبحث عن الرائحة .

- هل لديك أصدقاء هناك ؟

- لا ليس بعد .

- هل تعرفت على فرنسيين زاروا تلك الجهات ؟

- نعم .. لدي أصدقاء تعرفتُ عليهم حديثاً كانوا هناك .. تحدثنا مطولاً .. هناكِ من رأى بقايا الغارة لاتزال على حالها .

- هذا يعني لك شيء مهما حسب فهمي .

- نعم شيئاً مهم جداً جداً .

- نحن في انتظار قدوم الحجر إلى فرنسا ؟

- سأحاول .. شكرا لمتابعتك .

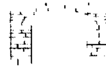
باقي الردود كانت تشكره على منشوراته .. هناك بعض المناقشات التي جرت بينه وبين آخرين لم أر ضرورة لنقلها هنا .

فكرتُ في مراسلته أو كتابة رد أشكره فيه على المنشورات التي استمتعتُ بدوري بها .. كنتُ أخشى أن يحدث لي كما حدث من قبل في منتدى مجالس تاريخية عندما تجاهلني صاحب أحد المناشير التي تحدثت عن حجر غدامس .

ابن مورينا .. هو سبب كل ما أنا فيه الآن .

يبدو أن الحفيد يفكر جدياً ليس في زيارة سياحية بحثاً عن رائحة استثارت جده ولا للتعرف عن مكان كتب جده عنه كتاباً ينوي نشره .. يمكنك تبين نيته الحقيقة من بين السطور .. إنه باحثٌ جديد عن الكنوز .. نسخة متطورة من أدموندو على ما يبدو .

إنه يبحث عن الحجر !



لم ينشر الحفيد أي منشورات جديدة تتحدث عن دفتر جده ولا عن زيارته .. كل منشوراته الجديدة تتحدث عن مواضيع بعيدة عن موضوع الحجر .. ترددتُ كثيراً في التواصل معه .. شيئاً ما يحثني على

التواصل معه بينما تجربتي السابقة مع المنتديات كانت تحذرني من التسرع .

فتر اهتمامي بصفحة الحفيد .. لم يعد يهمني ما ينشره .. انشغلتُ بتصحيح الترجمة وإعادة صياغة بعض المقاطع .. أصبحت جاهزة للنشر وعرضها على بعض الأصدقاء المهتمين بالآثار والسياحة والتراث .. كان الملف يتكون من قرابة المائة صفحة .. أرسلتُ عبر البريد الالكتروني عدة نسخ لأكثر من صديق للاطلاع وإبداء الرأي .

بعد أيام قليلة وصلني أول الردود .. لم يحمل الرد تهنئة بجمال الترجمة فقط بل بأهمية المادة المترجمة .. أشار كذلك لضرورة نشرها في الصحف أو المواقع المهتمة .

لم يتأخر الرد الثاني سوى يوم واحد .. حمل كسابقه تهنئة حارة مقترحاً نشر الملف على هيئة كتاب .. بل والإسراع في ذلك .. أضاف صديقي صاحب الرد أن الكتاب سيكون مفيداً ومهماً ورائعاً .. بل وصفه بالجهد الجبار الذي يثري المكتبة التراثية حسب وصفه .

في الحقيقة كان رده مشجعاً خصوصاً أنه أبدى استعداداً للمساعدة في البحث عن ناشر مهتم بمثل هذا النوع من الكتب .. بل أنه يستأذنني في إرسال نسخة لبعض الناشرين .

الرد الثالث لم يكن كسابقيه .. ليس لأنه تأخر عدة أيام عنهما ولا بسبب خلوه من التهاني والتبريكات والشكر وغيرها .. بل لأنه كان رداً عملياً ومهماً .. كان رده في أقل من سطر وبخط عريض ملون بالأحمر : "عليك أن تصلَ إلى الحجر في أسرع وقت . رحم الله باموحمد "

كانت فكرة نشر الكتاب خطوة رأيتها مهمة ومفيدة لكن يتطلب الأمر أخذ موافقة من صاحب المنشورات حتى لا أقع في محظورات أنا في غنىً عنها قد تكلفني الكثير مما لا طاقة لي به .

أما الوصول إلى الحجر في أسرع وقت فهي رسالة من شخص قرأ الترجمة بشكلٍ مختلف عن الآخرين وهذا ما أعجبني فيه .

ثلاثة أصدقاء آخرون أرسلت لهم نسخاً عن الملف .. لم تصلني ردوداً منهم بعد .. لا أعلم سبباً لتأخرهم .. ربما لم يقرأوا الملف أو لم يهتموا للأمر! .

قررتُ أن أراسل صاحب المنشورات لأخذ الإذن منه بشأن الطباعة .. اجتهدتُ ليلة كاملة في صياغة رسالة قمتُ بترجمتها إلى الفرنسية عبر نفس الوسيلة السابقة في ترجمة المنشورات .. قرأتها عدة مرات .. كتبتُ له فيها عن نفسي وعن كوني من أبناء تلك الواحة التي سحرت جده من قبل كما سحرت آخرين .. في مقطع آخر شكرته على نشره لمذكرات جده وتمنيتُ له النجاح في إصدارها في كتاب .. حدثته في

جزء آخر من رسالتي عن الصعوبة التي عانيتُ منها في ترجمة المنشورات .. مضيفاً له أن منشوراته كانت سبباً في تطور لغتي الفرنسية كثيراً بشهادة كثير من الأصدقاء .

المقطع الأخير ضمنته طلبي للإذن في إعادة نشر مذكرات جده باللغة العربية .

أعدتُ صياغة عدة مقاطع منها .. أرسلتُ نص الرسالة لصديقي المتقن للغة الفرنسية طلباً للعون ولإبداء الرأي .

في اليوم التالي وجدتُ الرد مشفوعاً ببعض التعديلات الطفيفة .. وبملاحظة واحدة في آخر الرسالة :

- رسالتك طويلة حاول اختصارها .

لستُ من أولئك الذين يهملون الملاحظات حتى ولو كانت مجحفة .. حاولتُ اختصار الرسالة بحذف بعض المقاطع .. كلما قرأتها بصيغتها العربية أجدها مبتورة لا تكفي لإيصال المعنى .. أعيد المقطع المبتور لمكانه من الرسالة .. اقتطع بسيفي البتار مقطعاً آخر .. كررتُ عملية البتر عدة مرات في أكثر من موضع من الرسالة الطويلة .. كانت عملية البتر مشوهة للرسالة .. حاولتُ إعادة صياغتها مختصرة بدت سيئة جداً ..صارت كمن فك جهاز تلفزيون ليصنع منه جهاز هاتف .

أخيراً توصلت لحل ارتضيته لمشكلتي .. حذفتُ كامل الرسالة وأرسلتُ له سطراً واحداً في مربع المحادثة على صفحته .

دخلتُ على صفحته قبل أن أرسل السطر .. اطلعتُ على منشوراته الجديدة .. لا جديد فيها سوى صور جديدة له .. بعد عدة منشورات وقبل أن أرسل السطر لاحظت منشوراً قصيراً من سطر واحد .. ما استوقفني فيه ليس قصره بل ورود اسم غدامس فيه .. لم تكن بي حاجة لترجمته لسهولة كلماته فقد كان المنشور يقول حرفياً :

أنا في الطريق إلى غداميس .

أرسلت له رسالة قصيرة ..

- هاي ... أنا من غداميس ... تابعت منشوراتك عن واحتي .

في اليوم التالي تصفحتُ صفحتي على الفيسبوك وجدتُ رسائل عديدة من أصدقائي في مختلف الأغراض كلها باللغة العربية ليس من بينها أي رسالة باللغة الفرنسية ليس هذا فحسب بل لم أجد صفحة الحفيد .. فقد تم حظري من تصفحها .

كان ذلك رداً واضحاً وكافياً .. لم يكن منشوره حديثاً فتاريخه يشير أن صاحبه كتبه من أيام خمسة فائتة .. علي الأسراع .. فهو في طريقه إلى غدامس على ما يبدو .أرجو أن لا يكون قد وصلها .


توجدا

1

ما أن أعلنتُ عن نيتي التوجه إلى واحتنا حتى قوبل قراري ليس بالترحيب فحسب بل بالتهليل والصياح وبعاصفة كبيرة من التصفيق من كل أفراد عائلتي الصغيرة .. حاولتُ أيضاًح أن الرحلة قد لا تستغرق إلا يومين على أبعد تقدير غير أن أحداً لم يأبه لهذه الإضافة .. كانت خطط كثيرة قد وضعت من قبل أطفالي الثلاثة لما سوف يقومون به في الزيارة المزمع القيام بها .. ما تسرب إلي من همساتهم كان بحاجة لأسبوع على أقل تقدير ليتمكنوا من تنفيذه .. ذكّرتهم بأن الرحلة مدتها يومان فقط .. لكنهم لم يعيروا لتنبيهي أي اهتمام ومضوا في إكمال رسم مخططاتهم .. الغريب أنه لم يسألني أحد عن سبب رغبتي في الذهاب الى الواحة .. فالذهاب إلى الواحة ليس بحاجة لسبب أو مبرر .. فنيران الشوق واللهفة متأججة دائماً ولا يمكن إطفائها بمجرد الوصولِ بل تظل على حالها من التأجج والاتقاد .

الحقائب جُهزت في أقل من ربع ساعة ووضعت أمام باب البيت الرئيسي .. وُضِعتُ أنا أيضاً أمام الأمر الواقع .. لا يمكن التراجع عن مثل هذا القرار .. ربما لو لقيتُ شيئاً من المَعارضة لعدلتُ من خططي .
بعد صلاة الفجر كنا على أهبة الاستعداد للانطلاق .

2

يحدث الآن :

"في الطريق الى واحتي الآمنة ".

نقرتُ الجملتين على عجل على صدر صفحتي على الفيسبوك قبل أن أبدأ رحلتي .. هذه صارت عادتي مذ ابتليتُ بهذه المصيبة وإدمانها .. تذكرتُ قول أحدهم لي ذات مرة : " من السهل تتبع أثرك لمن يتربص بك " .. ابتسمتُ قبل أن أغلق الشاشة الزرقاء .

ألقيتُ نظرة أخيرة على محتويات السيارة قبل أن تنطلق في رحلتها الشاقة الشيقة .

3

انطلقت الأوبل أسترا تشق طريقاً اعتادت على قطعه بهدوء وثقة نحو الواحة الآمنة .. لا يزال ضوء الفجر شحيحاً لا يمكن الاعتماد عليه وحده في السير دون الاستعانة بأنوار السيارة لتفادي المطبات وأخواتها .. زوجتي على يميني تتلو أذكار السفر تحاول جاهدة طرد نعاس يأبى إلا أن يفرض نفسه .. البخار يتصاعد من كوب قهوتي .. أطفالي الثلاثة في المقعد الخلفي يغطون في نوم يحسدون عليه .. هذه الرحلة لم تكن بمناسبة أحد العيدين ولا لحضور حفل عرس .. لا أنكر شوقي الكبير لرؤية أمي وجدتي وباقي العائلة وشوق مثله أو بدرجة أقل للسير في أزقة الواحة

العتيقة ... لكن كان هناك سبب آخر لهذه الرحلة غير ما اعتدت من أسباب موجبة لقطع ستمائة كيلو متر .. رشفتُ من قهوتي ولم أتفطن للمطب الذي نبت أمامي فجاءة ..

كان ذلك آخر مطبات العاصمة .

4

اختفت مظاهر المدينة تماماً .. الطريق يقطع ريف العاصمة ويشطره إلى شطرين غير متساويين .. توزعت البيوت والمحال على جانبي الطريق بقسمة ضيزى وبترتيب وتوزيع مجهول المعالم .. حركة السيارات خفيفة بشكل واضح هذا ما يغري بزيادة السرعة ليتجاوز المؤشر المائة بأكثر من رقم .

نسمات الصبح منعشة .. رشفت من قهوتي قبل أن أضغط على دواسة البنزين .. تحرك المؤشر علامتين بعد الرقم المائة .. أحاول دائماً أن أحافظ على هذا المستوى فهو مريح ويتيح لي أن أفكر في أشياء أخرى غير هذه الطريق الطويلة المملة .. السكون يلف السيارة لا صوت غير صوت المحرك وشخير يأتي من الخلف مجهول الصاحب .. التحقت زوجتي بركب النائمين في الكرسي الخلفي على الرغم من محاولتها البقاء على قيد الاستيقاظ .. فشلت كعادتها .. هذه المرة سقطت في براثن النوم أبكر مما اعتادت .

5

بعد ساعة ونصف من السير توقفتُ في محطة البنزين .. ما في خزان السيارة لا يكفي لإكمال المسيرة كلها .. الاحتياط واجب فربما لا يمكنني التزود بكفايتي من الوقود في مكان آخر .. كما أني بحاجة لبعض الراحة قبل مواصلة المسيرة .. هذا عدا أن كل من في السيارة قد استيقظ بسبب مطب في الطريق لم أتفطن له ولم أتمكن من تفاديه فقد كان ذهني مشغولاً بما سأقوم به حال وصولي إلى الواحة .

الحجر يشغل جل تفكيري .. أحاول وضع خطة ما للوصول إلى الحجر قبل ذلك الفرنسي .. لم أتوصل بعد كل هذه المسافة لما يرضيني هذا من حسن حظ ذلك الفرنسي ومن سوء حظي .

في السابق كان أول مكان أذهب إليه بعد أخذ قسط الراحة هو ملعب الكرة .. وأول من ألتقيهم هم رفاق الملعب .. أما هذه المرة فالأمر يختلف .. أعلم أنه سيثير انتباههم واستغرابهم وربما استهجانهم .. ربما أغير من خططي ما أن أصل إلى الواحة .. قد تكون البداية من هناك فلا بأس من الاستفادة من فترة الراحة في لعب الكرة وفي الغد سأبدأ في تنفيذ ما تجشمت عناء هذه الرحلة بسببه .. المهم أن أتوصل لفكرة مرضية .

6

استئنفنا رحلتنا بعد التزود بالوقود .. الهدوء يعم أركان السيارة من جديد .. عليّ استثماره قبل أن تحل العاصفة .. فلابد أن يخترع الأطفال

سبباً للشجار .. لا طعم لطفولة خالية من الشجار .. إنها أشبه بقنينة بيبسي خالية من الغاز .. ذهني مشغول جداً يعمل بأقصى سرعته .. استعدتُ شريط ما حدث منذ البداية .. لكن شجاراً انطلق بين الأطفال على شيء ما أعادني إلى الواقع .. اكتشفتُ أني قطعت ما يزيد عن ثلث المسافة .. كان الصراع الدائر خلفي حول النافذة .. اعترض الصغير على موقعه الذي يتوسط المقعد الخلفي راغباً في الجلوس إلى إحدى النافذتين بينما رفض المستحوذان على الموقع الاستراتيجي التنازل عن موقعهما له هذا كل ما في الأمر .. لكنه سبب وجيه لخوض شجار من أجله .

توصلتُ لحلٍ يرضي جميع أطراف النزاع حول النافذة .. لم تستمر الهدنة طويلاً .. لابد من إثارة أمرٍ آخر ليستمر النزاع .. كان هناك دائماً سبب يوجب النزاع .. هذه المرة لم أتدخل .. لعلمي أنه لن يستمر طويلاً .. أنا بحاجة للهدوء لأحسن التخطيط لما أنا مقبل عليه .

7

قطعنا الآن أكثر من ثلثي المسافة .. عادت المياه لمجاريها وتصالح المتخاصمون في المقعد الخلفي وعقدوا عدة هدنات على ما يبدو .. انشغلوا بلعبة على جهازهم اللوحي .

لاحت لنا نخيلها من بعيد .. إنه المشهد الأجمل عندي على الإطلاق .. يحلو لي الإبطاء في السير كلما لاحت لي من بعيد .. أعشق تأملها من بعد .. أرى بعين خيالي الكثير مما لا يمكن رؤيته عن قرب .. أمنح نفسي

فرصة تخيل الكثير من الأحداث التي جرت في ماضي الواحة .. أجدها تمتثل أمامي بشخوص أبطالها .. هذه المرة كان مشهد مجالسة باموحمد لصديقه الفرنسي هي التي ارتسمت في ذهني وحده المستحوذ على تفكيري .. أعدتُ المشهد بحذافيره في ذهني .. أبطئتُ من السير حتى أتمكن من إعادة الموقف كاملاً قبل انتهاء المسافة التي تفصلني عن الوصول .. لاحظت زوجتي بطء السيارة على غير العادة .. ظننت أن النوم والتعب قد أثقلا عليّ .. لكني نفيتُ ذلك بعد أن نبهتني .

وصلنا أخيراً إلى الواحة .

8

لم أستطع مقاومة عشقي للعب الكرة .. حاولتُ ذلك وكدتُ أنجح في مسعاي لولا أن اتصالاً هاتفياً وصلني من صديق طفولتي .. علم بوصولي من خلال متابعته لمنشوري على صفحتي في الفيسبوك .. كانت رسالته مقتضبة :

- نحن في انتظارك في الملعب فلا تتأخر .

كان عليّ بعد الانتهاء من اللعب ترتيب أوراقي والاستعداد لما تكبدت من أجله عناء هذه الرحلة : الحجر .

التقيتُ رفاق الدرب الكروي .. لعبنا وضحكنا .. في السابق كنا نخوض كل مساء مباريات حامية الوطيس .. شديدة الحماس والمنافسة .. لا تساهل ولاتسامح ولا تهاون فيها .. مع مرور الزمن صارت لقاءاتنا أقرب إلى

العادة التي يحرص الجميع على أن لا يكون السبّاق في التخلي عنها .. مبارياتنا الآن ليست من أجل ممارسة الرياضة فحسب .. بل من أجل أن نلتقي معاً .. الأهداف المسجلة في زمننا الغابر كانت شحيحة تنتهي مبارياتنا بعدد قليل من الأهداف نظراً لتقارب المستوى الفني والبدني بين المتنافسين وحرص الجميع على الفوز ما جعل من مباريتنا أقرب إلى مباريات نهائية .. كان لقاؤنا يومياً مع الوقت اختصرناه إلى النصف فصرنا نلعب ثلاث مرات في الأسبوع بعد أن توقف البعض عن ممارسة لعبتنا المفضلة لضروف مختلفة منها الإصابة أو الملل أو السفر .. لازلنا نعاند السنين ونحاول الاستمرار .. صارت الأهداف التيء نسجلها في لقاؤنا الآن أكثر فائدة .. أولها وأهمها أنها المكان الوحيد الذي يجمعنا وآخرها ممارسة الرياضة .

في تلك العشية تخلصتُ من القليل من السعرات الحرارية المتراكمة .. أشعر الآن بالرضا ليس للعب الكرة بل للقائي برفاقي القدامى .. ذلك الهدف الوحيد الذي أحرص على تسجيله في كل زيارة لواحتي .

9

حان وقت العمل .

مع التاسعة صباحاً توجهت إلى المدينة العتيقة .. أوقفتُ الاوبل استرا أمام فندق عين الفرس .. فندق فقد الكثير من شخصيته بعد إزالته وإعادة بناءه في محاولة لتطويره !..

ذكرني بما قاله باموحمد لضيفه ميشيل عن ما تحمله الجدران من تاريخ الفندق الذي حل ضيفاً فيه الكثير من الشخصيات السياسية والأدبية والفنية .. أزيل الفندق الذي استقبل ذات يوم ملك إيطاليا .. الفندق الذي حلت ضيفة عليه أشهر ممثلات إيطاليا وهوليود صوفيا لورين أثناء تصويرها لأحد أفلامها في صحراء واحتنا .. الفندق االذي سكنه ميشيل من قبل وباولو وزاني .. حل محله فندق يحمل نفس الأسم ونفس الشكل ولكنه لا يحمل نفس الروح .

توجهتُ إلى النبع الخالد .. نبع غسوف .. وقفتُ في المكان الذي جمع ميشيل وباموحمد .. استعدتُ ما دار بينهما في المكان من حوارات .. اختفت ضفادع النبع بعدما غارت مياهه بعيداً .. استبدلوا النبع الهبة بنبع مماثل .. ليس الفندق فقط فقد روحه بل النبع أيضاً .. لا يحمل من الأصل إلا الاسم فقط .. يد الانسان تفسد حين تظن أنها تصلح .. تدخلها في الطبيعة دائمًا يفسدها .. يقال أن ماء النبع غارت ونقصت بعد أن فكر الانسان ذات يوم أُعجِب فيه بعلمه وقدرته في التحكم في منابعها والسيطرة على ماءها وزيادة جرعتها ونصيبه منها .. نسوا أن النبع هبة .. بل هبة غالية احتاجت لقربان لتنفجر ذات يوم بعيد .. فغارت عقوبة للاستخفاف .. استنكرتُ صنيع الأحفاد .. لم يرثوا عن أسلافهم حرصهم على العين وعشقهم لها .. أعادوا الكرة الآن مع الفندق .. أزالوا القديم الذي شيد بالطين .. زالت معه ذكرياته وتاريخه ليقيموا بدلاً منه مسخاً آخر يشبهه شكلاً ورسماً فقط .

10

تقمصتُ شخصية ميشيل .. دخلتُ الواحة من بابها المجاور للعين .. من الواضح أن بيت باموحمد هو أحد البيوت التي انهارت تحت ضربات القنابل الفرنسية قبل ما يزيد عن سبعين عاماً .

علي الوصول في أسرع وقت ..

كثيرة هي البيوت التي انهارت جراء القصف .. تجاوزت المائتين بيتاً .. وتصدع أضعاف ذلك .. لم يتمكن الأهالي من إعادتها لسابق عهدها .. كل ما فعلوه أنهم فتحوا الطرق التي تسبب سقوطها في انسدادها .. كما أنهم دعموا البيوت الملاصقة لها حتى لا تنهار هي الأخرى .

أصعب ما في الأمر أن القنابل سقطت في أكثر من موقع .. ففي أي منها بيت باموحمد ؟

خمسة مواقع تضررت ضرراً كبيراً من القصف الجوي الفرنسي .. سأستبعد موقعاً واحداً وهو أقربها للعين .. ذلك أن ما ورد في دفتر ميشيل حسب ما نشره حفيده على الفيسبوك أن بيت باموحمد ليس قريباً من العين فيوم استضافه في بيته انتظره في ساحة تصكو " السوق القديم " .. لو كان

زقاق بيته الذي وصفه قريب من العين لانتظره قرب العين واصطحبه لبيته .. بذلك أوفر وقتاً وجهداً في بحثي .

سأتوجه لموقع آخر .. دخلتُ ساحة السوق التي كانت خالية في مثل هذا الوقت من اليوم والتي لم تكن كذلك في عهد بامومحمد .. عليّ الإسراع قبل ظهور الفضوليين .

دخلتُ أول موقع .. لا أعلم سبباً جعلني أبدأ بهذا الموقع .. لكن لابد من البداية .. اصطحبتُ معي مجرفة ومسحاة فربما أستعين بها في إزالة أكوام التراب للوصول للمكان .

الموقع عبارة عن زقاق سقطت قنبلة على أحد بيوته فتهاوى وانهار .. مصممو الواحة القدماء بنوا صرحهم على هيئة كتلة واحدة مترابطة تدعم بعضها بعضاً يشد بعضها أزر بعض فمواجهة الصحراء وحداناً نتيجته معروفة مسبقاً إنها الفناء .. الاتحاد يجعلك اكثر صلابة واقدر على مواجهة الصحراء .. فكون أن البيوت مترابطة وتشترك في الجدران فسقوط جدار في بيت ما يعني سقوطه في بيتين وربما أكثر ..أما سقوط بيت فيعني سقوط مجموعة من البيوت .. إنها سلسلة قطع الدومينو .. فسقوط جدار يجر معه جدراً كثيرة .

للوصول إلى بيت باموحمد علي الدخول لأحد البيوت الأقل ضرراً لتكون قاعدة الانطلاق في البحث عن بيت باموحمد .. لو ذكر ميشيل اسم

البيت لكفاني كل هذا الجهد .. فبيوت الواحة تحمل أسماءً وكذلك أزقتها ما يسهل الوصول إليها .. هل تعمد الحفيد إخفاء الاسم أم أن ميشيل فاته معرفة ذلك أو تسجيله إذا كان قد عرفه ؟

طرح الاسئلة في هذا الوقت لا يجدي ..

تسلقتُ جداراً يفصل تلك المنطقة المنكوبة .. بحذر شديد سرت فوق سقف انهار قبل سبعين سنة .. قد يكون انهار على ساكنيه .. أم حالفهم الحظ فكانوا من بين الناجين ؟ .

عليّ الحذر فربما يصبح المكان قبراً موحشاً لي .. لعلةٍ ما تجاهل الأسلاف إعادة بناؤه .. ربما تركوه دليلاً للأجيال القادمة على سوء صنيع فرنسا مع واحتنا .. لا أستبعد ذلك .. ربما لأسباب أخرى .. قد يكون من بينها المال .. فإعادة زقاق قد يحوي عشرة بيوت ليس بالأمر الهين .. خاصة أن تجارة القوافل كانت قد توقفت للأبد في ذلك الوقت .

حاولتُ تبين ملامح المكان .

11

أنا ألآن أقف في ما كان ذات يوم تمانحت لأحد البيوت .. في هذا البيت أو ما تبقى منه .. بحثتُ عن منفذ يفضي بي إلى سقيفة البيت .. الأدوار السفلى تضررت بنسبة أقل من تلك الأعلى .. البيت الذي سقطت فيه القنبلة

هو وحده الذي يصعب الوصول إلى سقيفته .. أما ما جاوره فالأمر نسبي يعتمد على حجم الركام الممكن إزالته .

عدة ساعات استهلكتها في البحث .. نز مني عرق كثير .. بذلت جهداً كبيراً .. توقعت أن تهاجمني أسراب الخفافيش في الأماكن المعتمة .. يبدو أن المكان لم يرقها للإقامة فيه .. حتى الجرذان لا أثر لها .

انتهيتُ من الموقع الأول دون الوصول إلى بيت باموحمد .. خارت قواي دون نتيجة .. لم أجد ما يدل على بيت باموحمد .. أعلم مدى صعوبة المهمة ولكن لا أملك إلا المحاولة .. أنا بحاجة لشيء من الراحة قبل استئناف عملية البحث في موقع آخر .. كما أنه يتوجب علي شحن بطاريات المصباح الكهربائي .. تجاهلتُ أثناء بحثي الرد على عدة مكالمات هاتفية .. الآن علي إعادة شحن هاتفي النقال للرد على كل تلك المكالمات .

كان نصفها من صديقي أزاك .. والنصف الآخر من زوجتي .. اتصلتُ بصديقي أزاك أولاً .. قال إنه في مقهاه ينتظر سائحاً .

علم بمقدمي إلى الواحة بالأمس .. لم نلتق في ملعب الكرة .. سألتُ عنه فقيل لي أنه ربما يكون مصاباً .. لكن يبدو أنه منشغل ببعض السواح .

مقهاه الذي سماه توجدا .. كان في زمن سابق بستاناً صغيراً يحمل نفس الاسم على عادة أهل الواحة في إطلاق الأسماء على كل شيء .. أصبح

بفضل جهوده المقهى الذي يأمه كل زائر للمدينة القديمة .. ليس كونه الوحيد فقط بل لما يمنحه لك موقعه بين البيوت القديمة من فرصة لمعايشة الماضي ومنح خيالك فرصة للجنوح في تأمله .. هذا عدا جمال تنسيقه وقدم مقتنياته ومعروضاته .. فهو قبل أن يكون مقهىً فهو يعد متحفاً مصغراً .. كما يمكن أن يجود عليك أزاك ببعض الشروح القيمة هذا عدا أنك ستستمتع بكأس من الشاي الأخضر المنعنع .. باختصار أنت الرابح بزيارتك لصديقي أزاك .. لذلك عليّ أن أزوره الآن لأجني كل تلك الفوائد دفعة واحدة .

12

توجهتُ نحو توجدا .. لأتحصل على قسطٍ من الراحة وكذلك سأتحصل منه على مصباح يعينني في مهمتي .. ربما يرافقني أيضاً .. فما يمكن أن يفعله اثنان أفضل وأجدى بكثيرٍ مما يفعله واحد بمفرده .

ضحك وحق له أن يضحك بمجر أن رآني داخلاً من باب المقهى .. فهيئتي بعد خروجي من الخرائب تدعو للقهقهة وليس للضحك فحسب .. امتزج عرقي والغبار ليرسم أسوأ لوحة على كامل جسمي يمكن أن أظهر بها .. بعد أن أنهى نوبة ضحكه قال :

- من أي قبر خرجت بهذه الهيئة ؟
- كنتُ في جولة سياحية في إحدى الخرائب القديمة .

- أحد السواح أيضاً لا يحلو له التجوال إلا في الخرائب .
- أحد السواح ؟
- نعم منذ يومين .
- يومان ؟ .
- نعم .

يبدو أني تأخرتُ بعض الشيء .. اغتسلتُ وأزلتُ بعض آثار جولتي الفاشلة .. قلتُ بعد أن تناولتُ من أزاك كأساً مترعة من الشاي :

- هل هو فرنسي ؟
- لا أعلم تحدثت معه بقليل من الإنجليزية .. كان يسأل عن آثار الحرب العالمية الثانية كما أفهمني أحدهم .
- هل يمكن أن تصفه لي ؟

كان وصفه مطابقاً للصورة التي يضعها على صفحته على الفيسبوك :

- أين يمكن أن أجده الآن ؟
- لا أعلم تحديداً .. سألني عن موقعين في خريطته .. لم تكن واضحة لكني استطعتُ أن أحدد المكانين الذين يبحث عنهما .
- هل خريطته مرسومة باليد .
- نعم .. كيف عرفت ذلك ؟ .. على فكرة لم أرتح لهذا السائح .

فراسته لا تخيب .. ربما هذا ما يميزه عنا جميعاً ..

- لم تخيبك فراستك هذه المرة كذلك .
- زي العادة يا صاحبي .

غادرته مسرعاً .. تركتُ له كأس الشاي مترعة .. أعتقد أنه بدأ يرتاب كعادته .. قد يلتحق بنا ما أن يشعل الفضول رأسه .. لن يتأخر في ذلك .. قبل أن أبتعد عن مقهاه ويغيبني الزقاق وصلت إلى مسمعي آخر ما كنتُ أتمنى سماعه .. لا أعلم كيف غاب عن ذهني كل ذلك الإرث المتراكم عبر الأجيال من صراع أسلافي مع أمة الخفاء ..

في غمرة انشغالي بالبحث عن حجر أسلافي نسيتُ اتخاذ أهم التدابير لتلافي الوقوع في براثنها .. نسياني ذلك منحني شجاعة أنا بأمس الحاجة لها للوصول إلى الهدف .. أو ربما سأقف أمام سور الخرائب لوقت طويل قد يكون كافياً لضياع الحجر .. ربما لن أتجرأ للدخول للخرائب وحدي مهما كان الثمن المقدم مقابل ذلك .. نسياني كان القربان أم أن الوصول للحجر بحاجة لقربان من نوع آخر .

أسرعتُ إلى المكان الذي سأل عنه .

13

مجمع الخرائب محاط بسور يفصله عن الشارع .. جبل الركام يبدو لك من بداية الزقاق .. كلما مررتُ بهذه المواقع تساءلتُ عن سبب إهمالها وعدم إعادة بنائها كما اعتاد الأهالي في السابق ..

لأمر ما تركت هكذا .. ما هو ياترى ؟

تسلقتُ السور الفاصل بين العالمين .. عالم العمار وعالم الخراب .. العمار الذي احتاج الأسلاف لعقود وقرون ليتمكنوا من تشييده وبناءه والمحافظة عليه وعالم الخراب الذي صنعته قنبلة غبية في ثوانٍ .. سور يغطي جرحاً غائراً لا يندمل في قلب الواحة .

لم يكن ارتفاع السور يتجاوز المترين .. متران يفصلان بين عالمين متناقضين .. عالم الحياة ونقيضه الفناء .. الحضارة وغريمتها الوحشية .. نحتاج لإزالة هذا السور وإعادة عالم الخراب إلى ما كان عليه من عمار لإرادة صلبة وسواعد قوية والكثير من العرق وأضعاف ذلك من الحب والعشق .

هبطتُ إلى الجهة الأخرى بكل حذر .. وقفتُ أمام الأطلال متأملاً باحثاً عن منفذ .. سرتُ عدة خطوات .. استوقفتني آثار حديثة لقدم سبقتني إلى

المكان .. كان ذلك كافياً لتدفق الإدرينالين في دمي .. منحني تدفقه جرعة كبيرة من الشجاعة .. لن يكون هذا الفرنسي الطامع أشجع مني .

عليّ أن أتدارك فارق الزمن .. نحن الآن في سباق شبيه بسباق السلحفاة والأرنب الشهير .. أنا في مكان السلحفاة في خط الإنطلاق أما هو ففي منتصف المسافة .. ليس هذا ما يجعله في مكان الأرنب فقط .. امتلاكه لخريطة ورثها عن جده توضح له مكان الحجر المدفون بدقة وتفصيل تمنحه أفضلية تضعه قرب خط النهاية .. أما أنا فعلي أن أتتبع أثره فكل ما أملكه عشق ورثته عن أسلافي .

فهل ستنتصر السلحفاة في السباق في نسخته الجديدة .

أرسلتُ رسالة لصديقي أزاك موضحاً فيها مكاني للبحث عني في حال تأخرتُ في العودة .. كانت بطارية هاتفي تلفظ أنفاسها ..

عليّ الإسراع .

دخلتُ الخرائب المتداعية .. عليّ أن أكتم مشاعري أمام المشهد الوحشي والجريمة النكراء .

تتبعتُ أثر المغامر الفرنسي ..

العتمة .

أنا في موقف لا أحسد عليه .. عليّ مواجهة العتمة .. ما لدي من الشجاعة والإدرينالين بالكاد تكفي لمواجهة أمة الخفاء المتربصة في الخرائب كما تقول الأساطير المتداولة على ألسنة كل أهل الواحة .. إنه الدرس الأول الذي نتعلمه : احذر الخرائب ولا تستهن بالعتمة .

يمكن مواجهة أي عدو ظاهر لكنك ستقف عاجزاً على عدو متربص بك يتفوق عليك بسلاحين الخفاء والعتمة .

أنا بحاجة ليس لمصباح ضوء لينير لي الطريق للدخول فحسب .. بل لروح المغامر وشجاعته .

تذكرت ذلك الجد الذي قرأ العلامة في الطير ليستدل بها على الكنز .. لو استسلم كرفاقه لكان طعاماً للغربان لكنه آمن بأهم سلاح يجب أن يحوزه أي مغامر : الأمل .

مزيداً من الإدرينالين وأشياء أخرى أجهلها تحركت داخلي .. تلوثُ الأذكار لأتحصن بها .. منحتني جرعة أنا بحاجة ماسة لها من الشجاعة .. تتبعتُ الأثر .. يبدو أنه النفق الذي فتحه الأهالي للوصول إلى باموحمد في مرقده تحت الانقاض .. كان علي أن أتحلى بعيني قط وأحساس خفاش لأتمكن من الوصول .. كما علي أن أتحرك بخفة غزال حتى لا يشعر بي غريمي .. يبدو أن النفق يخترق جدران عدة بيوت قبل الوصول إلى بيت باموحمد في أقصى الزقاق .. جردت المسحة من عصاها لتكون دليلي

في عتمة النفق .. وسلاحاً إذا تطلب الأمر .. قد ينهار كل شيء تحت رأسي ويصبح المكان قبراً لي كما كان قبراً لباموحمد من قبل .. كان علي اصطحاب أزاك على الأقل ليمنحني ثقة أكبر كما سيكون لمثل هذه المغامرة بعد آخر .. أو لنتشارك القبر معاً .

14

بما تبقى من بطارية هاتفي المحمول استعنت بضوء شاشته الضعيف على تبين مساري .. أما العصا فكانت معينا آخر إلى جانب ضوء الهاتف الخافت .. انحنيتُ لأقصى ما يمكنني لأتمكن من الدخول عبر النفق الذي سبقني للدخول عبره الفرنسي .. رائحته دلت على مروره قبل وقت ليس بالبعيد .. تعثرتُ أكثر من مرة بالطوب المتناثر وبقطع أثاث البيت المتحطم .. اصطدمتُ كذلك بألواح السقف المنهار .. أنا بحاجة للسكون حتى لا أثير انتباه الفرنسي .. حتى الآن أعتبر نفسي فاشلاً في هذا الإجراء .. تتبعت النفق .. سرتُ أمتاراً في مسار مستقيم .. النفق يجبرني الآن على الدوران نحو اليسار .. التفتُ خلفي قبل الإقدام على المزيد من المغامرة .. كان ضوء النهار بعيداً وبالكاد أتبينه من موقعي هذا.. رائحة عطر الفرنسي تملأ أنفي .. هذا يعني اقترابي من الوصول إليه .. هذا شجعني على المضي قدماً .

تذكرتُ الرائحة .

رائحة الواحة المميزة تملأ أنفي .. تذكرتُ ما رواه باموحمد لميشيل عن الرائحة .. هل ستكون دليلي كما كانت دليل ذلك الجد المحظوظ للوصول إلى النبع الخالد النبع الهبة ؟ .

هل ستقودني الآن للوصول إلى هبة أخرى ؟.

انطفأ هاتفي .. انتهت مهمته في وقت أنا بأمس الحاجة له .... لم يعد يصلح إلا لقذفه في وجه الفرنسي في حال نشب بيننا عراك .. تباً لهذه التقنية

لاح لي ضوء خافت في آخر النفق .. نقطة بيضاء تتحرك وترتعش .. قدرتُ المسافة التي تفصلني عنها بحوالي الثلاثين متراً .

إنه نور مصباح يدوي صغير .. إنه الفرنسي يتحرك هناك .

هل وصل إلى غايته ؟

فكرتُ جدياً بالعودة واصطحاب صديقي أزاك والاستعانة بمصباح كهربائي كذلك .. لكن تلك النقطة البيضاء التي تتجول في أطلال واحتي بكل راحة منحتني جرعة إضافية من الشجاعة تدعم وتضاف إلى سابقتها التي كادت تتلاشى .. واصلتُ سيري بحذر أقل وبعزيمة أكبر وإضافية شيء من الإنحناء .. بدأ النفق يضيق وبقعة الضوء تزداد وتكبر ..

وصلتُ .

النفق يفضي لتمانحت البيت .. أو ماكان تمانحت لبيت قبل أكثر من سبعين سنة .. أزيل تراب وركام كثير من المكان ..

هل كان باموحمد وحده في البيت وقت انهياره ؟ ..

حدثتني جدتي عن يوم الغارة الفرنسية ذلك .. قالت أن والدها رفض المغادرة إلى البساتين إسوة بسائر الأهالي .. بقي في سقيفة بيته .. أمر بخروج العائلة مع الخارجين لكنه اختار البقاء في بيته .. يبدو أن فكرة الموت تحت الصرح كانت تدور في أكثر من رأس ..

هل كان لوالد جدتي سر يحرسه ؟

باموحمد .... ها نحن ضيوف في بيتك .

15

كان يجثو قبالة جدار انهار معظمه وتراكمت أحجاره الطينية ذات اليمين وذات اليسار على هيئة أخدود طويل أشبه بقبر .. السقف يجثو بكامل ثقله على جدعي نخلة كانا قبل انهياره يحملان رفقة أربع جدوع أخرى سقف البيت كاملاً .. بقية الجدران تكومت تحت ثقل السقف .. لم يبق من جدار

صدر البيت سوى مترٍ واحد .. كانت بقعة الضوء تبحث في بقايا الجدار توقفت بقعة الضوء في ركن قصيّ أسفل ما تبقى من الجدار ..

يبدو أني وصلتُ في الوقت المناسب .. كعادة السلحفاة في خط النهاية .. عليك أن تؤمن بحظوظك إلى آخر السباق هكذا فعل جدنا الأول .. فحصل على أعظم جائزة ..

وصلنا معاً إلى خط النهاية .. السلاحف لا تخسر على ما يبدو .

بقعة الضوء توقفت عن البحث .. استقرت على مكان واحد ... في موقع الحجر كما وصفه ميشيل في دفتره أسفل الجهة اليسرى من جدار صدر البيت .

لكن الموقع خالٍ من الحجر .. هناك يد سبقت إليه ..

السباق انتهى قبل انطلاقه .. خاطبته بفرنسيتي الركيكة :

- le jeu est fini[1] .

فاجأته .. التفت بسرعة نحوي .. ملامح الرعب والمفاجأة بدت على وجهه رغم كمامة بيضاء غطت معظم ملامحه .. كنتُ جاثياً في مدخل

---

1 ـ انتهت المباراة .

النفق أستند على عصاي .. وجه لي مصباحه اليدوي .. تبين ملامحي .. تمعن في وجهي ملياً .. زفر بعد أن عرفني .

- أنت هنا ؟ ..

أشار بضوء مصباحه إلى موقع الحجر الخالي .. قال بإنجليزية متقنة :

- لا غالب ولا مغلوب .
- لا توجد مباراة بدون رابح حتى لو اعتقد المتبارون عكس ذلك .

كان ردي بإنجليزية أيضاً .

- لا أرى رابحاً في هذه المباراة !

صوت أزاك من خلف سور الخرائب وضع حداً لحوارنا .. خرجنا معاً بحذر .. كان أزاك يقف في مدخل النفق وكل علامات الاستغراب والاستفهام مرسومة على محياه تطلب تفسيرًا .. اختصرها في سؤال :

- عم تبحثان ؟
- ستفهم بعد قليل .

في مقهى توجدا أزلنا ما علق بنا من غبار وتراب .. جلسنا ثلاثتنا .. كؤوس الشاي الأخضر مترعة أمامنا .. أزاك يبحث عن تفسير .. شرحتُ

له في عجالة سبب وجودنا في الخرائب .. تكفل الفرنسي بعرض صورة للحجر المفقود .. طرح أزاك سؤالاً :

- أين الحجر الآن ؟ ..

ترجمتُ سؤاله .. خيم صمت بيننا .. ففي جواب هذا السؤال تنتهي هذه المغامرة .. قال الفرنسي بعد دقائق من الحيرة :

- الحجر منزوع من مكانه منذ وقت بعيد .

أضاف :

- هناك من سبقنا للحجر .. الحجر منزوع منذ وقت طويل على ما يبدو .. ليس هناك أثار .. تفقدت المكان جيداً .. كان النفق مسدوداً من مدخله منذ وقتبعيد على ما يبدو .. أزلت تراباً كثيراً أخذ مني وقتاً وجهداً حتى تمكنتُ من الدخول .

كانت علامات الخيبة مرسومة بوضوح على محياه .. سأل أزاك سؤاله الثاني ما ترجمته :

- من تعتقد قد يكون سبقكما للحجر ؟..
- من الصعب تحديد من كانوا على علم بوجود الحجر .

كان هذا جوابي .. أما الفرنسي فرد قائلاً بعد أن أشعل سيجارة :

- قد يكون الحجر في إيطاليا الآن للأسف .

- هذا احتمال بعيد جداً ومستبعد .

- لماذا تجعله بعيداً وتستبعده ؟

- إيطاليا غادرت واحتنا بعد أيام قلائل من غارة فرنسا .. وبامومحمد ظل تحت الأنقاض عدة أيام .. الحجر كان موجوداً بعد خروج الطليان ودفن بامومحمد .. حسب ما جاء في دفتر جدك .

- قد يكون من أهل البلد .

- لا أعتقد أن أحداً قد دخل مواقع قصف طيران فرنسا بعد إخراج الجثث من تحت الركام .. لو كان الحجر غادر واحتنا فسيظهر في مكان ما .. في متحف أو جامعة أو على الأقل في صورة على الإنترنت .. لو كان في حوزة أحد في واحتنا لظهر لنا منذ زمن .

- لا أعتقد أنه في فرنسا .

- أنا أيضاً لا أعتقد ذلك .. رصيد فرنسا السيء مع واحتنا يجعلني أستبعد ذهاب الحجر لفرنسا .

- إذا أين هو ؟

كان هذا سؤال جديد من أزاك .

16

نفث دخان سيجارته في سماء توجدا .. تابعتُ صعوده وتلاشيه .. كانت علامات الفشل والخيبة مرتسمة على ملامحه .. أما صديقي أزاك فكانت ملامحه تعكس فرحه من ضياع الحجر على فرنسا ..

سرحتُ بذهني بعيداً عن توجدا .. ذهب بي إلى غسوف .. نبع الواحة الذي عشقه باموحمد وآخرون كثر لا نعلمهم .. طاف بذهني كل ما دار بينه وبين جليسه قبل قرابة السبعين عاماً .. مرت دقائق طويلة من الصمت .. اكتفى فيها الفرنسي بحرق أكثر من سيجارة .

- هل وجدت الرائحة ؟
- الرائحة ؟
- تحدث جدك عنها في دفتره مطولاً .

شعر بشيء من الحرج لكنه قال :

- إنها أول ما تلاحظه بمجرد دخولك للواحة العتيقة .. لكني لم أجدها .. ربما لمرور وقت طويل على ...

قاطعته قائلاً :

- لكني شممتها منذ أول وهلة دخلت فيها الواحة العتيقة .

أشعل سيجارة أخرى ليخفي خلف دخانه حرجه قلتُ :

- هل ترغبون في معرفة مكان الحجر ؟
- بالطبع .. هل تعرف مكانه ؟

وقفتُ .. وقف بدوره أطفأ سيجارته .. تخلى أزاك عن كأس الشاي .. خرجنا من المقهى ثلاثتنا معاً .. سرنا طويلاً في طرقات الواحة .. تعمدتُ إطالة خط سيرنا .. عبرنا طرقات كثيرة حتى وصلنا إلى النبع .. كان ساكناً .. توقفنا أمامه .. كانت الشمس تقترب من المغيب .. قلت له :

- هنا كان يحلو لجدك الجلوس لتأمل هذه اللوحة ..

أشرت للمكان حسب ما ورد في دفتر جده .. قلت :

- صحيح أن النبع الحالي يشبه كثيراً صورته التي تركها عليها جدك .. لكنه فقد شيئاً مهماً .. فقد روحه .. احتفظ بالشكل فقط لكن روح المكان غادرت .. غارت مع مياهه إلى الأبد .. ليس هذا ما فقده فقط ..
- الضفادع ؟
- فقد النبع عاشقاً متيما به .. فقد حارساً صلباً .. فقد باموحمد .

قال بعد أن أشعل سيجارة ونفث دخاناً كثيفاً في سماء النبع:

- يمكن إعادة المياه بالطرق الحديثة .. الأمر لا يحتاج إلى معجزة .

- إنه بحاجة لقربان وليس لمعجزة .

- قربان ؟

- بحاجة لعشق .. عشق الحياة أعظم قربان .

واصلنا سيرنا .. غادرنا محيط الواحة العتيقة .. أمام باب المقبرة القديمة توقفنا .. دخلنا .. كانت القبور تملأ المكان .. آلاف الأحجار .. تنتشر شواهد لقبور العابرين .. منهم من ترك بصمته ومنهم من لم يهتم بذلك .

- هنا يرقدون بسلام رقدتهم الأخيرة .. آلاف الحرّاس .. آلاف العاشقين .. حرسوا الواحة في حياتهم عبر العصور .. إرثها وتراثها .. واحد فقط من بين هؤلاء الآلاف لا يزال يحرس كنزه .. كان آميناً مخلصاً عاشقاً متيماً .. استأمنته الواحة عليه حياً فتكفل بحراسته ميتاً أيضاً .

تزاحمت علامات الحيرة والاستفهام والعجب على محياهما .. قلتُ :

- لو أنك قرأت دفتر جدك جيداً لعرفت مكان الحجر ولما تجشمت كل هذا العناء للبحث عنه .

رد مستنكراً :

- لم يذكر جدي في دفتره مكان الحجر .. بل تأسف كثيراً لضياعه ..

- لم يذكره صراحةً لكنه ذكر ضمناً .. ذكره ربما دون قصد .. قد تحتاج أن تتقمص روح جدك لتفهم وتعي ذلك .

- لم أفهم !

- قبل مغادرة جدك للواحة زار هذه المقبرة أو ربما المقبرة الأخرى في طرف الواحة الآخر والتي تحوي عددا يماثل أو يزيد عن هذه من القبور .

- أذكر هذا .. كان يرغب في وداع باموهميد صديقه .

- كان الحجر على بعد خطوة منه ..

- هل يمكن أن تفصح أكثر ؟

- هل تذكر آخر ما قاله رفيقه فوق قبر باموهميد .

أخرج جهازه اللوحي .. شرع يبحث في منشوراته التي نشرها على صفحته في الفيسبوك :

- لا تتعب نفسك .. كانت آخر جملة : مات أميناً وسيظل أميناً .

نظر إليّ ملياً .. بعد صمت تدبر فيه الجملة قال :

- هل تعني .....

- نعم .. الحجر يرقد مع باموحمد في قبره .. هذا هو التفسير الوحيد لتلك الجملة .. كما أنه التفسير المنطقي الوحيد لاختفاء الحجر وعدم ظهوره كل ذلك الوقت .. للوصول إلى الحجر عليك أن تنبش كل هذه القبور وربما أضعافها فجدك لحسن الحظ لم يحدد اسم المقبرة ربما تجاهل ذلك أو ربما لم يكن يعلم بوجود أخرى .

استوعب الرسالة أخيرا ..أعتقد أنه اقتنع

- يا لها من خطة ذكية .. لحفظ الكنوز ..
- ذات يوم سيعيد الأخلاف بناء بيت باموحمد وكل البيوت المنهارة .. سيعيدونها لسابق عهدها .
- بدون الحجر لن تعود لسابق عهدها .
- ربما .. المهم أن تعود .. قد تظهر أحجار أخرى لتزين تلك الجدران .
- رحم الله باموهميد .. كان نعم الحراس ونعم العاشق .

غادرنا المقبرة بعد أن دعونا للأسلاف وشكرناهم على حفظهم وحمايتهم لإرث الأسلاف ..

***

على صفحته كتب الحفيد منشوراً قصيراً يقول فيه :

في غداميس وجدت الرائحة لكني لم أجد الحجر .

على صدر صفحتي على الفيسبوك كتبت :

" فخور بك باموحمد .. يتجدد لقائي بك قريباً في غسوف " .

عدتً بعد طول انقطاع طال كثيراً لزيارة منتدىً المفضل مجالس تاريخية.. كتبتً فيها رسالة شكر وامتنان مخصصة لأحد رواده كان نصها :

" شكراً لك يا ابن مورينا .. صمتك كان أفصح من أي تعليق كنت سترد به على أسئلتي .. صمتك كشف لي عن سر من أعظم أسرار واحتي .. شكراً لك بسببك تعلمتُ الكثير وتعرفت على باموحمد ".

***

شقت سيارتي الأوبل أسترا طريقها في رحلة العودة .. لم يندلع أي صراع بعد في المقعد الخلفي .. زوجتي تحاول البقاء مستيقظة :

- هل تعرفين سبب قيامي بهذه الرحلة ؟
- لا
- سببها حجر .
- حجر ؟

تمت بعون من الله وفضله

آخر جمعة في عام 1437 هجرية الموافق 30سبتمبر 2016

طرابلس – غدامس - راس لانوف .

ابراهيم عبدالجليل الإمام

من مواليد 12 من شهر ابريل عام 1970 ميلادية بمدينة غدامس - ليبيا

حامل دبلوم كلية تقنية الطيران المدني والأرصاد الجوية .

كاتب وقاص وروائي وباحث تاريخي .

نشر انتاجه القصصي بالعديد من الصحف المحلية والعربية

في صحيفة العرب اللندنية الشهيرة كانت البداية ..

صحف ليبية عديدة مثل (الحقيقة .. المختار .. فسانيا .. الكلمة الحرة .. توفرضا .. غدامس .. الأسبوع .. الأيام .. اصحاب الكلم .. الناس .. مجلة راس لانوف)

المواقع الالكترونية : ليبية وعربية وصفحات التواصل الاجتماعي .

صدر له :

1- قطرات من ذهب ... قصص واساطير

2- آلام آمال ... مواقف واحداث

3- جمهورية العسل .. قصص

4- سلطان يوم الماء ... قصة مصورة ادب الطفل .

5- لها طلع نضيد .. قصة مصورة أدب الطفل

6- تحرير غسوف .. قصة مصورة أدب الطفل

7- الشاغة .. رواية قصيرة

8- آيت انج ... قصة

9- آيت أدا ... رواية

10- رسالة من الرجل الميت ... رواية

11- أمم أمثالنا .. مجموعة قصصية

12- بوابة الصحراء.. مجموعة قصصية

13- أشليد .. رواية.

14- حجر غدامس .. رواية

مخطوطات :

1- كنز الاسلاف .. رواية

2- لحون وشجون .. رواية

3- نبش في ذاكرة الماضي .. رواية

4- يوميات واحد محظوظ .. رواية من الأدب

5- مطبات .. رواية من الادب ساخر

6- قطط لا تموء .. رواية

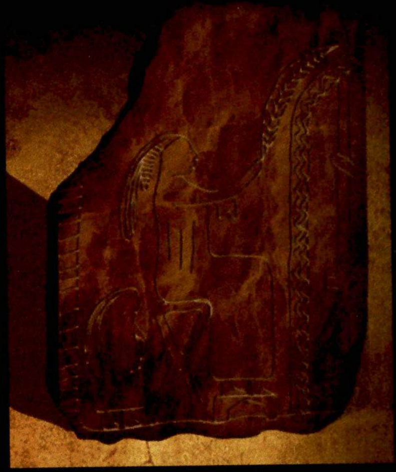
7- أطفال حول غسوف .. مسرحية للأطفال

8- القادووس .. مسرحية للاطفال

9- ميلودا .. مسرحية

10- اشياء لا تحدث دائما .. قصص

الفهرس



تنازلتُ عن عنادي .. في البداية كان دخولي لعالم وليد الجديد لماماً .. يعني بتعبير شعبي أني كنتُ أقف على العتبة .. لا أُحسب في زمرة هؤلاء المدمنين الذين لا يغادرون مقهاه ولا يمكن إضافتي إلى زمرة أولئك اللامبالين بهذا العالم الجديد المثير .. كنتُ في منزلة بين المنزلتين أو الزمرتين كرجال الأعراف .. ألجه لدقائق معدودات وأفر منه فرار السليم من الأجرب .. وفرار طريدة من صياد ماهر .

الهيئة العامة للثقافة
GENERAL AUTHORITY FOR CULTURE